EUROPEAN COUNCIL OF IMAMS
المجلس الأوروبي للأئمة

شهر رمضان وإحياء القيم

د خالد حنفي
الشيخ كمال عمارة
الشيخ طه سليمان عامر
د. أحمد طه

شهر رمضان
وإحياء القيم

من إصدارات المجلس الأوروبي للأئمة

تبرع لدعم إصدارات المجلس

www.euimams.org

سلسلة إصدارات المجلس الأوروبي للأئمة
الإصدار الثالث
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة

شهر رمضان
وإحياء القيم

سلسلة إصدارات المجلس الأوروبي للأئمة
الإصدار الثالث
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

فهرس المحتويات

مقدمـة الكتاب 8

أحاديث نبوية – د. أحمد طه 11

مقدمة 12

الصوم والأمن والسلم المجتمعي 13

الأمن والسلم في القرآن الكريم 14

العبادات والأمن المجتمعي 15

الصوم ومراعاة صعوبة البدايات 21

التكاليف ومراعاة صعوبة البدايات 22

مراعاة صعوبة البدايات في الواقع الأوربي 26

صور من تطبيق مراعاة صعوبة البدايات في الواقع الأوربي 27

الصوم وحرية اتخاذ القرار واحترام صاحبه 29

تأسيس منهج حرية اتخاذ القرار في القران الكريم 30

صور من هذا المنهج في السنة النبوية 31

تطبيق هذا المنهج في الواقع الأوربي 35

الصوم واستكمال ما بدأه الآخرون 37

استكمال ما بدأ الآخرون في القرآن الكريم 38

استكمال ما بدأه الآخرون في العلم 41

استكمال ما بدأه الآخرون في الواقع الأوربي 44

الصوم والتربية الوقائية 46

وقفة مع وقاية الصوم وتفعليها 47

التربية الوقائية والواقع الأوربي 51

فرائد وفوائد من حديث الأعرابي – الشيخ كمال عمارة 53
الفائدة الأولى في اللغة ومعاني المفردات 55
الفائدة الثانية: في خصائص مجلس النبي ﷺ 56
الفائدة الثالثة: في أدب الصحابة عند النبي ﷺ 63
الفائدة الرابعة: فائدة حديثية 64
الفائدة الخامسة: في خُلُق الستر وتجنب التشهير 66
الفائدة السادسة: التوبة من قريب 67
الفائدة السابعة: مراعاة النبي ﷺ لحال السائل وتمييز مقامات تصرفات النبي ﷺ 70
الفائدة الثامنة: ترك الاستفصال في قضايا الأحوال مع ورود الاحتمال يُنزل منزلة العموم في المقال 72
الفائدة التاسعة: كفارة من جامع في رمضان وهو صائم 75
الفائدة العاشرة: في ضحكه وتبسمه ﷺ 76
الفائدة الحاديةَ عشْرةَ: الهدي النبوي في التعامل مع التائبين والمستفتين 86
وهذه بعض الآداب المستفادة من الحديث في التعامل مع التائبين والمستفتين: 87

مختارات نبوية بين يدي رمضان – د. خالد حنفي 89
الحديث الأول: أخوة محمد وعيسى عليهما السلام 90
رسائل الحديث 94
الحديث الثاني: سفينة المجتمع 96
رسائل الحديث 99
الحديث الثالث: حرمة دم ومال المعاهد غير المسلم 103
رسائل الحديث 105
الحديث الرابع: فقه التعامل مع الإساءة للمقدس 107
رسائل الحديث 110
الحديث الخامس: أعلى الناس رتبة في الخير 113

رسائل الحديث 115
الحديث السادس: فضل العبادة في وقت الغفلة 117
رسائل الحديث 119
الحديث السابع: حلول نبوية لمشكلة اجتماعية 120
رسائل الحديث 122
الحديث الثامن: الزنا يذهب بالإيمان 123
رسائل الحديث 125
الحديث التاسع: طلب الإحسان في كل شئت 126
رسائل الحديث 129
الحديث العاشر: أخطر شهوتين على الدين 131
رسائل الحديث 134
الحديث الحادي عشر: النهي عن الضرب وتقبيحه 135
رسائل الحديث 140

شهر رمضان والقيم الأخلاقية والتربوية – الشيخ طه سليمان عامر 141
مقدمة 142
بالقرآن نزداد إيماناً 144
حال المسلم مع القرآن في شهر رمضان 147
أهل السلوك وإصلاح القلوب 148
أثر العزلة في تزكية النفس 150
كيف نصوم صيام الصالحين؟ 152
شهر رمضان وتعظيم الحرمات 154
ماذا بعد شهر رمضان؟ 158

الصيام وتهذيب الأنا 158
الصيام والمواساة 163
شهر رمضان ثورة على أَسْر العادة 164
لا تعطها كل ما تريد 165
هذا ما يصنعه الفراغ 168
تذكر الآخرة ورفاهية الروح 169
الربح والخسارة بين التصور المادي والتصور القرآني 172
الصيام وضبط الموازين 174
القيم في ضوء الصيام 175
الجمال بين الباطن والصورة 177
من أين يكتسب المرء تقدير الذات؟ 181
القوة في ميزان القيم 186

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدمة الكتاب

نَهَج المجلس الأوروبي للأئمة إصدار كتابٍ مع قدوم شهر رمضان المبارك ليكون عوناً وزاداً للإمام والداعية والمسلم الأوروبي خاصة وللمسلمين في كل مكان عامة .

وجاء بحث فضيلة د . أحمد طه

ووقف مع خمسة أحاديث رمضانية وشرحها شرحاً وافياً واستنبط منها الدروس والعظات والقيم في الأبعاد الأخلاقية والإجتماعية والسلوكية والروحية، مع وصلها بالصيام وأخلاقه وآدابه، وبواقع المسلم الأوروبي .

وألقى فضيلة الشيخ كمال عمارة

الضوء على حديث الاعرابي واستبط منه إحدى عشرة فائدة، وتميزت معالجته بالعلمية، وإظهار الدروس العلمية والأخلاقية والتربوية ، وتسليط الضوء على جوانب من قدوة الرسول صلى الله عليه وسلم في التربية والتعليم والتعامل مع أصحابه الكرام .

و «بين يدى رمضان» لفضيلة **د. خالد حنفي** وقد شرح عشرة أحاديث منتقاة وعالجها معالجة تجمع بين التأصيل العلمي، والربط بالواقع لمسلمي أوروبا وقضايا المجتمع، والقيم التي يجب أن نُحييها ونتمثلها انطلاقاً من حديث

رسول الله صلى الله عليه وسلم، مع ذِكر الفوائد والرسائل الإيمانية والأخلاقية المستفادة من الهدى النبوي .

وشهر رمضان كنزٌ ومخزونٌ عظيمٌ للقيم الأخلاقية والإنسانية والتربوية، وعلى المسلمين أن يستحضروها في صومهم، وتتجلى في سلوكهم ومعاملاتهم .
فكانت مساهمة **فضيلة الشيخ طه سليمان عامر** ليحمل عنوان: «شهر رمضان والقيم الأخلاقية والتربوية» .
وتناول ثماني عشرة قيمة أخلاقية وتربوية يؤسسها شهر رمضان في القلوب والنفوس على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع والإنسانية .

هذا ونسأل الله تعالى أن يجد القاريء الكريم في هذا الكتاب بُغيته، وينتفع به في دنياه وآخرته. وأن ينفع كاتبيه وناشريه ومن بذل جهداً في إخراجه للناس .

والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

المجلس الأوروبي للأئمة

بسم الله الرحمن الرحيم

أحاديث نبوية

د: أحمد طه

أستاذ علوم الحديث بالكلية الأوروبية للعلوم الإنسانية بألمانيا
عضو المجلس الأوروبي للأئمة

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا وبعد:

فهذه جملة من الأحاديث النبوية الشريفة التي تخص الصيام وشهر رمضان؛ أعرضها في حلتها القشيبة، واستلهم منها دروسا وعبر تتنزل على واقعنا المعاصر؛ فنعيشها جميعا بين جمال روايتها وتفعيل درايتها، وقد عنونت لكل حديث بعنوان رئيسي أراه أهم مقاصد الحديث وعبرته الأساسية وإن أشرت في طيات شرحها لغيرها فلا مشاحة ولا ضير، وإني أسأل الله عز وجل أن يوفقني في طرحها والعمل بها والنفع من ورائها إنه على كل شيء قدير وهو الغفور الرحيم.

الصوم والأمن والسلم المجتمعي

أخرج البخاري ومسلم واللفظ له عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رِوَايَةً، قَالَ: « إِذَا أَصْبَحَ أَحَدُكُمْ يَوْمًا صَائِمًا، فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَجْهَلْ، فَإِنِ امْرُؤٌ شَاتَمَهُ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ، إِنِّي صَائِمٌ»

وفي رواية: «وَإِنْ شَتَمَهُ إِنْسَانٌ فَلَا يُكَلِّمْهُ» وَلِابْنِ خُزَيْمَةَ أيضا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: «فَإِنْ سَابَّكَ أَحَدٌ فَقُلْ إِنِّي صَائِمٌ وَإِنْ كُنْتَ قَائِمًا فاجلس» وعند التِّرْمِذِيّ: «فَإِنْ جَهِلَ عَلَى أَحَدِكُمْ جَاهِلٌ وَهُوَ صَائِمٌ».

لغة الحديث:

الرَّفَثِ: بِفَتْحِ الْفَاءِ وكسرها قال النووي: وَهُوَ السُّخْفُ وَفَاحِشُ الْكَلَامِ.

وَالْجَهْلُ: قَرِيبٌ مِنَ الرَّفَثِ وَهُوَ خِلَافُ الْحِكْمَةِ وَخِلَافُ الصَّوَابِ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ.

المعنى العام للحديث:

يرشدنا هذا الحديث الرائع المتكلم عن الصائم وما يتعلق بضوابط صومه وكيفية أدائه على الوجه الأتم، كيف أن الصوم ليس عبادة مجردة آلية تتعلق

بالله تعالى فقط؛ بل إن له قيما وأخلاقا تفرزها هذه العبادة تتعلق بالمسلم في معاملاته بين أهله وبين إخوانه، إن هذا الحديث القليل المباني العظيم المعاني ليدلنا على أمر مهم ينطلق من ربط العبادات بالقيم والأخلاق نشأة واستمرارا ليدهشنا في فهم مقاصد العبادات وإدراك جمال فرضيتها، ما يدفعنا لحب ديننا ولحمد ربنا وشكره أن أكرمنا بمثل هذا العبادات قربة له وارتقاء بإنسانيتنا، ولينقل المسلم من دائرة المادة في تقديم العبادة وأدائها إلى تفعيل روحانياتها وتحقيق أجوائها وكيفية معايشتها، التي توضح جمال الفرض وقوة الركن.

الأمن والسلم في القرآن الكريم

قد تنوع عرض القرآن الكريم لقضية الأمن والسلم المجتمعي بكثير من الآيات المباشرة في بيانها والدالة على ذلك بمضمونها، وهذا التنوع منه ما يتعلق بالمكان ومنه ما يتعلق بالعباد على اختلاف مشاربهم وعقيدتهم، ومنه ما يتعلق بالعبادات من هذا قوله تعالى

(رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا)، (ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ).

والآيات في هذا الشأن كثيرة وعظيمة وتعددها يؤكد هذه القضية فالأمن رفيق في كل شيء في تعاليم الإسلام مناديا به مكانا وعبادة ومعاملة وعبادا، وليأتي أيضا الصوم يؤسس جزءا من منظومة الأمن والسلم المجتمعي ربطا للعبادات والأركان الدينية بالقيم المجتمعية.

العبادات والأمن المجتمعي:

جاءت الشريعة الإسلامية في أركانها وفرائضها لربط العبادات جميعها بالأخلاق وفي الصدارة منها هذه الرؤية التي تحدث عنها حديث الصوم. فالعقيدة: وهي الركن الأول المتمثل في الشهادتين في ثناياها وفهمها اعلان لحالة المعتقد المسلم بأنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وهذا لا يخرج معلنها من دائرة الاتباع إلى دائرة الاعتداء أبدا كما يقول البعض أو يظن بل إن من تمام المعتقد تقديم سوق الأمن مع الشهادة لمن خالف ما لم يكن منه اعتداء أو بغي والأدلة على هذه كثيرة في كتاب الله سبحانه وتعالى منها قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (آل عمران: ٢٠)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤)

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا

إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ (١٠٩) (الأنبياء: ١٠٧ - ١٠٩).

فجميع الآيات تؤكد أهمية توافر الأمن وتحقيقه من خلال المعتقد الركن الأول من الإسلام.

الصلاة: فقد جاءت في أركانها الأساسية «التسليم» وهو دلالة نشر السلام من المصلي وإعلانه لمن يراه ويسمعه أن صلاته التي هي علاقة بين العبد وربه تدفعه أيضا إلى نشر السلام تذكيرا لنفسه وتأمينا للمقبل عليه كما أن الله تعالى أكد على مقاصدها فهي ناهية عن الفحشاء والمنكر ومعينة على الصبر الذي يصيب المسلم وكل ذلك من تأكيد الأمن وعدم خروج مؤديها عن إطارها الأخلاقي والقيمي، قال تعالى: **﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (١٨) (لقمان: ١٧ -١٨)**، وقوله تعالى: **﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٥).**

الزكاة: فقد جاءت الزكاة تؤكد من مقاصدها نشرا للأمن والسلم المجتمعي بل إن إخراجها وتوزيعها في أصنافها يوقف كثيرا من جرائم المال والسرقات والغصب، كما أنها تنقض كل مرض قلبي دافع إلى تكدير هذا السلم المجتمعي

من تحاسد وبغضاء وحقد وكبر، وغير ذلك مما يعد من أولويات تحقيق السلامة والأمن المجتمعي، فالحقوق إذا أوديت على وجهها فستقل معها معدلات الجريمة والطبقية المهيجة على تكدير هذا الأمن وإضعافه ولذلك جعل الله تعالى أخذ الزكاة وتأديتها منوطا بهذا الأمر حيث قال سبحانه ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٢٦٢)، وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٤)، وقال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) ﴾ (القصص: ٥٤ - ٥٥).

والحج: أيضا من شرائط اداه ضبط النفس وسوق الأمن والسلم المجتمعي بل يجتمع مع الصوم في نفس التوجيه الرباني والنبوي لا رفث ولا فسوق، كما أن الحج يدفع الجدل الذي هو أول مظان هذا التكدير ودافع كبير من دوافع الكراهية وعدم الأمن، وكل هذا تأكيدا على أن جميع العبادات دعت إلى هذا المن والسلم مع المجتمع، قال تعالى: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة: ١٩٧)

وكل ما سبق يؤكد القضية التي دعا إليها الحديث والتي ينبغي أن تكون جزء من تكوين شخصية المسلم في أي زمان ومكان يذهب إليه أو يوجد فيه.

دلائل الأمن والسلم هذا في الحديث:

- في الحديث بيان لأهمية الصيام في تهذيب الأخلاق وتوطين القيم.
- في الحديث تأكيد على ان العبادة الروحية والبدنية من أهم مقاصدها إرساء الأمن والسلم بين الناس في المجتمعات.
- والحديث أيضا تأكيد أهمية مراعاة أجواء العبادات التي تخرجها في أفضل أداء من العبد لمولاه.
- وفيه التأكيد على ان الصوم ليس فقط صوما للجوارح عن شهوات البطن والفرج، بل صوم جميع الأركان عن كل ما يضيع جمال فطرتها وتعاليم ربها وخالقها، وهو تأكيد عن صوم النفس عن الدنيا وتقييد دخولها فيما يفسد مزاجها ويضيع جمالها.
- التأكيد على طبيعة المجتمعات وأن فيها الصالح والطالح المسالم والمعتدي ومع ذلك فالصوم دافع لتقليل ذلك أفرادا وسلوكا.
- فيه تعميق الفهم بلفت الانتباه إلى عدم تضييع العبادة بما يدخل عليها من نزغات الشيطان والإنسان، فيخسر المسلم من ثوابها ويفقد من جمال تعايشها وثمراتها.
- الحديث قاعدة أساسية في كيفية ضبط السلوك وتقليل التنازع والصوم من

أساسيات ذلك.

- في الحديث إعلان المرء بصومه تعريفا وردءا مما يساعد في نشر العبادة والدخول في تفعيلها وكذلك يساعد في إعادة القيم والأخلاق وتخفيف حدة الاعتداء قال النووي: «وَاخْتَلَفُوا فِي مَعْنَاهُ فَقِيلَ يَقُولُهُ بِلِسَانِهِ جَهْرًا يَسْمَعُهُ الشَّاتِمُ وَالْمُقَاتِلُ فَيَنْزَجِرَ غَالِبًا وَقِيلَ لَا يَقُولُهُ بِلِسَانِهِ بَلْ يُحَدِّثُ بِهِ نَفْسَهُ لِيَمْنَعَهَا مِنْ مُشَاتَمَتِهِ وَمُقَاتَلَتِهِ وَمُقَابَلَتِهِ وَيَحْرِصُ صَوْمَهُ عَنِ الْمُكَدِّرَاتِ وَلَوْ جَمَعَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ كَانَ حَسَنًا» (شرح مسلم للنووي ٨/ ٢٩).

- وفيه أيضا من قواعد إرساء الأمن عدم معاملة المسيء بنفس معاملته من باب قوله تعالى : «**واعرض عن الجاهلين**» قال ابن حجر: « فَالْمُرَادُ مِنَ الْحَدِيثِ أَنَّهُ لَا يُعَامِلُهُ بِمِثْلِ عَمَلِهِ بَلْ يَقْتَصِرُ عَلَى قَوْلِهِ إِنِّي صَائِمٌ» فتح الباري ٤/ ١٠٥.

- وفي الحديث تذكير الإنسان نفسه بعبادته بمخاطبة نفسه دفعا للذنوب قد يقبل عليها أو تمزيق جهد في تحصيل طاعة من الطاعات، مما يعينه على استكمال عبادته والوصول لغايته.

- وفي الحديث أن إرساء الأمن والسلم المجتمعي يبدأ منك أنت بعدم الرد والتذكير بالأجر وإمرار الموقف.

- في الحديث أن إرساء الأمن والسلم المجتمعي يبدأ من حفظ اللسان فلا وجود لفحش الكلام ولا لغلظ القول المفضي إلى ما هو أكثر منه.

- وفيه إن الصوم مدعاة إلى التعقل ومورث للحكمة وإصابة القول والعقل.

- وفي إحدى روايات الحديث «وَإِنْ كُنْتَ قَائِمًا فاجلس» دعوة لتغيير الهيئة دفعا للغضب وجمعا لأسباب ضبط النفس لعدم خسران الصوم.

- وأخيرا هذا الحديث في نافلة الصوم فكيف بفريضته بل إن هذا أدعى وتأكيده الحضوري موجود في أيام رمضان.

ما يتعلق بالواقع الأوربي: الحديث من هذه الزاوية يؤكد ويرسخ ثلاث نقاط مهمة.

- التعريف بالصوم من هذه الناحية التي جاءت بها الشريعة وأكدها حديث رسول الله ﷺ وخاصة للآخر الذي لا يفقه من معاني الصوم إلا الشدة - في وجهة نظره - بالامتناع عن الطعام والشراب وشهوة الفرج.

- التأكيد على تفعيل هذا الحديث في جميع مناحي الحياة في شهر رمضان في العمل والجوار والشارع والمواصلات العامة والتعامل اليومي الذي يؤكد التزام الصائم بتعاليم دينه ونبيه ﷺ.

- الكلام مع أبناء الوجود الإسلامي في الغرب عن الصوم من هذه الناحية تحبيبا وتعريفا

الصوم ومراعاة صعوبة البدايات

روى البخاري ومسلم/ عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رضي الله عنه قَالَ: « لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ كَانَ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُفْطِرَ وَيَفْتَدِيَ، حَتَّى نَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا فَنَسَخَتْهَا»

المعنى العام للحديث

في الحديث يطلعنا سلمة بن الأكوع رضي الله عنه عن أمر أقره الشرع الحنيف في كل توجيهاته الشرعية التكليفية لأمة النبي ﷺ أمر التيسير والتدرج ومراعاة صعوبة البدايات عند نزول التكليف فعلا او تركا، فالمسلم عند تكليفه بأي عمل لم يتعود عليه ولم يألفه تراه يشق عليه بداياته حتى يتعود عليه ويخالط بلحمه وعظمه فيألفه بل يدعو إليه بعد ذلك، من هذه الأمور الصوم فإنه لم يعتد عليه كثير من الناس فتطلب الأمر مراعاة صعوبة التطبيق في بداية الأمر وتسهيل اجراءاته قال البخاري: « عن ابْنُ أَبِي لَيْلَى، حَدَّثَنَا أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ: نَزَلَ رَمَضَانُ فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَكَانَ مَنْ أَطْعَمَ كُلَّ يَوْمٍ مِسْكِينًا تَرَكَ الصَّوْمَ مِمَّنْ يُطِيقُهُ، وَرُخِّصَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ، فَنَسَخَتْهَا: ﴿ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٤] فَأُمِرُوا بِالصَّوْمِ».

التكاليف ومراعاة صعوبة البدايات:

لا تجد تكليفا كلف به الإنسان إلا وراعى الشارع صعوبة البدايات عنده وأن الأمر المعتاد عليه ليس سهلا الخلاص منه إن كان تركا، أو الاتيان بالجديد مرة واحدة إن كان فعلا، وإلا لأدى الأمر إلى الركون والفتور أو الترك لتعاليم الدين كلية، لذا راعى صعوبة البداية، وتجاذب النفس عند بداية العمل على غير ما ألفته، وجهل كثير من أوامره وغير ذلك وقد جاء الحديث ليؤكد هذا المعنى فعند أحمد من حديث أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: **قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ**: « **إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ**» ولنذكر شيئا من هذه المراعاة وصورها على سبيل المثال:

أولا: عدم الصب المعلوماتي عند بداية التكليف: فالإنسان أول ما يأته التكليف الجديد ينبغي أن يدرك أهمية عدم جاهزية العقل لاستيعاب كثير من الشرع بل ربما يبقى فقط على القليل منه حتى تمكن الإسلام من قلبه ويقدم العمل على أرضه ولعل هذا أول ما فعل مع رسول الله ﷺ فعند البخاري ومسلم أن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الْأَنْصَارِيَّ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانَ يُحَدِّثُ، قَالَ: **قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ - قَالَ فِي حَدِيثِهِ -**: «**فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**»، **قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ**: « **فَجُئِثْتُ**

مِنْهُ فَرَقًا، فَرَجَعْتُ، فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَدَثَّرُونِي، **فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ﴾** [المدثر: ٢] فَاهْجُرْ - وَهِيَ الْأَوْثَانُ - « قَالَ: «ثُمَّ تَتَابَعَ الْوَحْيُ»، ولقد اختلف العلاء حول الفترة التي فتر فيها الوحي فمنهم من قال ستة أشهر ومنهم من قال أكثر ومنهم من قال أقل ولقد فتر الوحي عن رسول الله ﷺ من بأن التصبر والتأسيس حتى يتحمل بعد ذلك كثرة نزوله.

قال ابن حجر: «وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ وَالضُّحَى شَيْءٌ يَتَعَلَّقُ بِفَتْرَةِ الْوَحْيِ قَوْلُهُ فَيَسْكُنُ لِذَلِكَ جَأْشُهُ بِجِيمٍ وَهَمْزَةٍ سَاكِنَةٍ وَقَدْ تُسَهَّلُ وَبَعْدَهَا شِينٌ مُعْجَمَةٌ قَالَ الْخَلِيلُ الْجَأْشُ النَّفْسُ فَعَلَى هَذَا فَقَوْلُهُ وَتَقَرُّ نَفْسُهُ.... ثُمَّ كَانَ مِنْ مُقَدِّمَاتِ تَأْسِيسِ النُّبُوَّةِ فَتْرَةُ الْوَحْيِ لِيَتَدَرَّجَ فِيهِ وَيَمْرُنَ عَلَيْهِ فَشَقَّ عَلَيْهِ فُتُورُهُ إِذْ لَمْ يَكُنْ خُوطِبَ عَنِ اللهِ بَعْدُ أَنَّكَ رَسُولٌ مِنَ اللهِ وَمَبْعُوثٌ إِلَى عِبَادِهِ فَأَشْفَقَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ أَمر بُدِئَ بِهِ ثُمَّ لَمْ يَرِدِ اسْتِفْهَامُهُ فَحَزِنَ لِذَلِكَ حَتَّى تَدَرَّجَ عَلَى احْتِمَالِ أَعْبَاءِ النُّبُوَّةِ وَالصَّبْرِ عَلَى ثِقَلِ مَا يَرِدُ عَلَيْهِ فَتَحَ اللهُ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ بِمَا فَتَحَ» (فتح الباري ١٢/ ٣٦٠).

ثانيا: التدرج في الحكم الشرعي: وهذا أيضا من هذا الباب (باب مراعاة صعوبة البدايات) وله أمثلة كثيرة وعظيمة ومنها على سبيل المثال في قضية تحريم الخمر؛ فعن أحمد/ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ، قَالَ: اللهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً. فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩] . قَالَ: فَدُعِيَ عُمَرُ، فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اللهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا، شِفَاءً، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ النِّسَاءِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ [النساء: ٤٣] ، فَكَانَ مُنَادِي رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذَا أَقَامَ الصَّلاةَ نَادَى: أَنْ لَا يَقْرَبَنَّ الصَّلاةَ سَكْرَانُ، فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اللهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً. فَنَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْمَائِدَةِ، فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَلَمَّا بَلَغَ ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ: انْتَهَيْنَا، انْتَهَيْنَا.

ثالثا: ترك ما لا يترتب عليه عمل ولا يوجب: البخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهَا: «يَا عَائِشَةُ، لَوْلاَ أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ لَأَمَرْتُ بِالْبَيْتِ، فَهُدِمَ، فَأَدْخَلْتُ فِيهِ مَا أُخْرِجَ مِنْهُ، وَأَلْزَقْتُهُ بِالأَرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ، بَابًا شَرْقِيًّا، وَبَابًا غَرْبِيًّا، فَبَلَغْتُ بِهِ أَسَاسَ إِبْرَاهِيمَ».

رابعا: التآلف بكافة أشكاله في البداية: البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: جَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ نَاسًا مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ: «إِنَّ قُرَيْشًا حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ وَمُصِيبَةٍ، وَإِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَجْبُرَهُمْ وَأَتَأَلَّفَهُمْ، ... الحديث».

خامسا: التقديم والتأخير عند التطبيق في بداية الأمر: فعند البخاري ومسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَقَفَ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ بِمِنًى لِلنَّاسِ يَسْأَلُونَهُ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: لَمْ أَشْعُرْ فَحَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أَذْبَحَ؟ فَقَالَ: «اذْبَحْ وَلاَ حَرَجَ» فَجَاءَ آخَرُ فَقَالَ: لَمْ أَشْعُرْ فَنَحَرْتُ قَبْلَ أَنْ أَرْمِيَ؟ قَالَ: «ارْمِ

وَلاَ حَرَجَ» فَمَا سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ شَيْءٍ قُدِّمَ وَلاَ أُخِّرَ إِلَّا قَالَ: «افْعَلْ وَلاَ حَرَجَ».

سادسا: الاكتفاء بالأركان والفروض في البدايات: فعند البخاري ومسلم عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِّ، أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِّ ﷺ ثَائِرَ الرَّأْسِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِّ أَخْبِرْنِي مَاذَا فَرَضَ اللهُّ عَلَيَّ مِنَ الصَّلاَةِ؟ فَقَالَ: «الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ شَيْئًا»، فَقَالَ: أَخْبِرْنِي مَا فَرَضَ اللهُّ عَلَيَّ مِنَ الصِّيَامِ؟ فَقَالَ: «شَهْرَ رَمَضَانَ إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ شَيْئًا»، فَقَالَ: أَخْبِرْنِي بِمَا فَرَضَ اللهُّ عَلَيَّ مِنَ الزَّكَاةِ؟ فَقَالَ: فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِّ ﷺ شَرَائِعَ الإِسْلاَمِ، قَالَ: وَالَّذِي أَكْرَمَكَ، لاَ أَتَطَوَّعُ شَيْئًا، وَلاَ أَنْقُصُ مِمَّا فَرَضَ اللهُّ عَلَيَّ شَيْئًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ «أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ، أَوْ دَخَلَ الجَنَّةَ إِنْ صَدَقَ».

سابعا: التجاوز لحدوث العهد ووجود الجهل بالحكم: فعند أحمد من حديث معاوية بن الحكم: «وَصَلَّيْتُ خَلْفَ رَسُولِ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَعَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ، مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ قَالَ: فَضَرَبُوا بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصْمِتُونِي سَكَتُّ، حَتَّى صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ فَدَعَانِي، قَالَ: فَبِأَبِي وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَمَا ضَرَبَنِي وَلَا كَهَرَنِي وَلَا سَبَّنِي، وَقَالَ: « إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ هَذَا، إِنَّمَا هِيَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ».

ثامنا: التغافل لضعف النفس في ارتكاب المخالفة: فعند البخاري: عَنْ عُمَرَ

بْنِ الخَطَّابِ، أَنَّ رَجُلًا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ اللهِ، وَكَانَ يُلَقَّبُ حِمَارًا، وَكَانَ يُضْحِكُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ، فَأُتِيَ بِهِ يَوْمًا فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: اللَّهُمَّ العَنْهُ، مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ تَلْعَنُوهُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ».

مراعاة صعوبة البدايات في الواقع الأوربي:

قد وجه النبي ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن معلما وحاكما وقد أمره بأشياء تحمل هذا المعنى المهم في بلد جديد في الدخول إلى الإسلام تشبه واقعنا الأوربي والغربي فعند البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى اليَمَنِ: «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ».

فهذا الحديث دليل على القضية التي يجب أن يتعامل معها مع الجديد وفي بيئة الغرب فقد راعى النبي في توجيه عدة أمور منها:

- اختلاف التعامل والحوار مع أهل الكتاب عن غيرهم؛ قال ابن حجر: قَوْلُهُ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ هِيَ كَالتَّوْطِئَةِ لِلْوَصِيَّةِ لِتُسْتَجْمَعَ هِمَّتُهُ عَلَيْهَا لِكَوْنِ أَهْلِ

الْكِتَابِ أَهْلَ عِلْمٍ فِي الْجُمْلَةِ فَلَا تَكُونُ الْعِنَايَةُ فِي مُخَاطَبَتِهِمْ كَمُخَاطَبَةِ الْجُهَّالِ مِنْ عَبْدَةِ الْأَوْثَانِ».

- التركيز على قضية المعتقد وتثبيته قال ابن حجر: «وَتَمَامُهُ أَنْ يُقَالَ بَدَأَ بِالْأَهَمِّ فَالْأَهَمِّ وَذَلِكَ مِنَ التَّلَطُّفِ فِي الْخِطَابِ لِأَنَّهُ لَوْ طَالَبَهُمْ بِالْجَمِيعِ فِي أَوَّلِ مَرَّةٍ لَمْ يَأْمَنِ النُّفْرَةَ».

- الخطاب بالفروض فقط بل ببعض الفروض وترك غيرها للتمكن منها أو لأنها لا تسقط بحال من الأحوال عن المدعو أو لعدم دنو وقتها فوجب التركيز على فروض الوقت، ولدفع الفتور أيضا بكثرة الأوامر أو النواهي وغير ذلك.

- التروي في الوقت الذي يعد عاملا مهما في توصيل الفكرة والإيمان بها والعمل الصحيح أداء لها

- التعريف والإخبار لا الحمل والقهر وهذا مهم في إيصال رسالة الإسلام وترك مساحة للآخر في الدخول إلى فضائه الرحب عن قناعة واختيار.

صور من تطبيق مراعاة صعوبة البدايات في الواقع الأوربي:

١. مراعاة التكاليف مع أبنائنا وصولا إلى أدائها وخاصة فيما لا تستدعي الظروف الزمانية والوقتية إلى سهولة أدائها كمشقة الصوم في صيف أوروبا أو الصلاة في المساجد جماعة في شتائها أو قضية الحجاب للبنات مع انتشار التبرج وغير ذلك ، ويمكن استخدام هذا المنهج في التدرج والتخفيف والصبر عملا

وأداء للوصول في نهاية الأمر إلى الفعل بقناعة وحب.

٢. مراعاة المسلم الجديد وأنه متجاذب بين ما كان عليه وبين تعاليم الإسلام الجديدة عليه فيجب مراعاة هذه الأمور في تثبيت عقيدته والسير معه خطوة بخطوة حتى يكسب كل يوم جديد يتمكن منه ويترك معه كل يوم من قديمه المخالف لدينه وشريعته.

٣. الملتزم الجديد الذي كان ذائبا في المجتمع الأوربي دون تقييد لشيء من حرمة أو مجاوزة، فيبدأ حياته الجديدة فيحتاج تفهم هذا الأمر معه في إعادته إلى طريق الله والصبر عليه وعدم التذمر منه ولا الزجر حتى يهديه الله تعالى ويرجع إلى أصله الفطري والالتزامي.

٤. التعليم الشرعي للمسلم الأوربي فينبغي التركيز على الضروري من العلم الشرعي له المناسب له فكرا وبيئة وعدم فتح أبواب من العلم لا صلة لها بواقعه ولا ببدايته.

٥. الكلام على الأركان كل في وقته الذي تدخل فيه وفتح مجال النقاشات حولها دون طمس لفكرة أو انزعاج لطرح فالبيئة مختلفة وتحتاج من الداعية صبرا في التعامل وفهما للواقع.

٦. توقيف الاتهامات عند المخالفات ومراعاة النموذج الأسلم والوسيلة المحمودة في التغيير والعودة به إلى طريق الجادة والله أعلم.

الصوم وحرية اتخاذ القرار واحترام صاحبه

أخرج البخاري ومسلم واللفظ له عَنْ حُمَيْدٍ، قَالَ: سُئِلَ أَنَسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنْ صَوْمِ رَمَضَانَ فِي السَّفَرِ؟ فَقَالَ: «سَافَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي رَمَضَانَ، فَلَمْ يَعِبِ الصَّائِمُ عَلَى الْمُفْطِرِ، وَلَا الْمُفْطِرُ عَلَى الصَّائِمِ»

المعنى العام للحديث:

في هذا الحديث يعلمنا النبي ﷺ كيف يتعامل المسلم مع أخيه المسلم في حرية توجهاته واحترام قراراته، في جو من التعامل المحمود والاحترام المتبادل بين الجميع وهو دليل نبذ الفرقة وادراك الاختلاف الفكري والمقصدي والعملي وتنوع طبيعة البشر في الأداء والترك، وتباين وجهات النظر والرؤية للأمور وغير ذلك ، قيمة عظيمة يسطرها الصحابة رضي الله عنهم والنبي ﷺ بين أظهرهم يسافرون معه يدركون أن الصوم واجب في الإقامة والحل غير واجب في السفر والترحال، فيصوم من يشاء عزيمة ويفطر من يشاء رخصة فلا يعب أحدهم على الآخر ولا يسلب عليه قراره أو يدعي ترجيحه أو يرميه بضعف إيمان أو تعنت أداء، حديث يفتح الأذهان نحو إطلالة جديدة على جمال الشخصية السوية المسلمة في التعامل مع بعضها في مجتمعاتها يجسدها الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

تأسيس منهج حرية اتخاذ القرار في القران الكريم

جاء القرآن الكريم يؤسس هذا المنهج في كثير من آياته وتوجيهاته لأمة الإسلام وهو عمل برز في البيئات السابقة لبيئة الإسلام نبه عليه القرآن الكريم ومن أمثلة ذلك:

ففي سورة النمل في قصة ملكة سبأ تأسيس لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿**قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ**﴾ **(النمل: ٣٣).**

وفي الحوارات التي قدمها جميع الأنبياء مع مدعويهم تترك دائما تلك المساحة التي تدل على هذا المنهج قوله تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ **(آل عمران: ٦٤)**، وقوله:﴿**قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ** ﴾ **(النور: ٥٤)**

بل إن الله تعالى جعل اتخاذ قرار الإيمان والكفر راجع إلى الإنسان نفسه وأن يتحمل تباعات اختياره هذا في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا** ﴾ **(المزمل: ١٩).**

والناظر في كثير من آيات القرآن الكريم يجد هذا الأمر موجودا ومؤسسا في كثير من الحوارات التي قدمها الأنبياء والصالحون والدعاة مع ذويهم وأهلهم.

صور من هذا المنهج في السنة النبوية

أخرج الإمام البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ زَوْجَ بَرِيرَةَ كَانَ عَبْدًا يُقَالُ لَهُ مُغِيثٌ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ يَطُوفُ خَلْفَهَا يَبْكِي وَدُمُوعُهُ تَسِيلُ عَلَى لِحْيَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعبَّاسٍ: «يَا عَبَّاسُ، أَلاَ تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ، وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا» فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ رَاجَعْتِهِ» قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: «إِنَّمَا أَنَا أَشْفَعُ» قَالَتْ: لاَ حَاجَةَ لِي فِيهِ».

وهنا النبي ﷺ يؤسس لهذا الأمر من خلال كلامه مع امرأة في صورة تحمل معان مهمة وجليلة كلها تؤسس لقضية حرية اتخاذ القرار واحترام صاحبه.

- فهو يتفهم مشاعرها فلا يحملها على تغيير رغبتها أو يغض الطرف عنها

- يؤسس بفعله ﷺ حرية اتخاذ المرأة قرارها في دليل واضح ورد قوي إلي كل من يشير إلى الإسلام في قضايا المرأة بما ليس فيه بل لن تجد أفضل من إسلامنا في هذا المنحى تكريما وحرية.

- يحاورها بشكل يدل على عرض وجهة النظر فلا استعلاء ولا أمر ولا جبر ولا امتهان عرض يتبعه اتاحة الفرصة لبيان وجهة النظر الأخرى أو الرضا بالقرار.

- يؤكد على دوره بالشفاعة ليعلم من يطالع قصته معها ﷺ أن هناك حدود ينبغي عند صناعة القرار واتخاذه أن يراعيها الإنسان ولا يجعل مكانته باب يخترق باب هذه المساحة من الحريات فالأمر لا يتعلق هنا بتشريع بل يتعلق

بنصيحة وشفاعة والرأي رأيك في نهاية الأمر.

- الرضا بالنتيجة وعدم تغيير المعاملة بعدها إذا لم يقبل المرء بالنصح المقدم أو ينزل للشفاعة المرجوة فلن يتغير شيء من المعاملة والمحبة عند القبول أو الرفض.

وفي حديث آخر: عند أحمد عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ: مَتَى تُوتِرُ؟ قَالَ: أَوَّلَ اللَّيْلِ بَعْدَ الْعَتَمَةِ، قَالَ: فَأَنْتَ يَا عُمَرُ، قَالَ: آخِرَ اللَّيْلِ، قَالَ: أَمَّا أَنْتَ يَا أَبَا بَكْرٍ، فَأَخَذْتَ بِالثِّقَةِ، وَأَمَّا أَنْتَ يَا عُمَرُ، فَأَخَذْتَ بِالْقُوَّةِ.

إن النبي ﷺ هنا يستحسن فعال الصاحبين ويحترم قرار كل ويترك الحرية لكل منهما في اختيار الوقت، بل امتدح كليهما مؤكدا على حسن صنيعهما وجمال فهمهما في جملة من المعاني المؤسسة لهذا الأمر الذي يفرزه هذا حديث الصيام الذي معنا.

لقد تنوع هذا المشهد من رسول الله ﷺ لبيان تأكيد هذا السلوك فليس هناك جبر وحمل على شيء إلا إذا كان أمرا من الله لا مساحة فيه لاتخاذ القرار والحريات فيه ولو فتحنا بابه لوجدناه بابا عظيما في سرد مواقفه وحوادثه المؤكدة لهذا الأمر، وما موقفه يوم بدر وأحد مع أصحابه وترك اتخذا القرار لهم في مكان المعركة، وما مشورته لعمر في أرض خيبر وتركه لاختياره قائلا: «إِنْ شِئْتَ تَصَدَّقْتَ بِهَا»، فَتَصَدَّقَ بِهَا فِي الفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِينِ وَذِي القُرْبَى وَالضَّيْفِ، وتركه ﷺ لسلمة

ابن الأكوع في الانتقال إلى البادية وترك المدينة قائلا: «ابْدُوا يَا أَسْلَمُ، فَتَنَسَّمُوا الرِّيَاحَ، وَاسْكُنُوا الشِّعَابَ «، فَقَالُوا: إِنَّا نَخَافُ يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ يَضُرَّنَا ذَلِكَ فِي هِجْرَتِنَا، قَالَ: « أَنْتُمْ مُهَاجِرُونَ حَيْثُ كُنْتُمْ «والمرأة التي صرعت قَالَ: «إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَكِ» فَقَالَتْ: أَصْبِرُ، فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللهَ لِي أَنْ لاَ أَتَكَشَّفَ،» في تنوع عظيم ودلائل قوية لهذا المنهج العظيم.

ولنرجع إلى أهمية هذا المنهج من خلال حديث الصوم:

ففي الحديث عدة معان نبرزها فيما يلي:

- بيان فهم عال تأسس من خلال تربية النبي ﷺ لأصحابه في حرية اتخاذ القرارات ما اتيحت المساحات والفرص بين أيديهم.
- إدراك لفهم الدين فهما عظيما ومرونته في تنوع توجيهاته وترك مساحات تحمل الجميع على الوصول إلى نيل الثواب وتحصيل الأجر وتتابع المسير في ظلاله.
- الدراية الجماعية بكل ما صدر من تشريعات حول الفروض والأركان والتوجيهات التي جعلت من الجميع مناط الاختيار واضح، وفي حدث الصوم دراية لفهم جواز الإفطار والصوم بين العزيمة والترخص وهذا إفراز لارتباط الناس بدينهم وتفقهم من نبيهم وتنفيذ ما يختارونه مما تعلموه.
- عدم وقوف الحياة في رمضان ففي بعض الروايات ان هذا السفر كان غزوا

والغزو والجهاد فيه من المشقة ما ليس في غيره ومع هذا فهم في عمل لا يتوقف وتحصيل لا يمل وطاقات لا تهدر إلا في الخير وفي ظلال كل هذا باب من الحريات فيما يتعلق بالأفراد كل حسب رؤيته وطاقته وحساباته.

- انتفاء التعايب بين الصحابة له دلالة عظيمة على انشغال كل واحد بنفسه، وإدراك تفاوت الناس في الإقبال والإدبار والمنشط والمكره والرخصة والعزيمة، وفيه دلالة على عدم الحجر على قرار الأخر برؤية ما جاء به الإنسان أحسن مما جاء به أخوه بل ربما طعن في قراره هو أو رأه مرجوحا وليس راجحا، وإدراك ما يؤدي له هذا التعايب «من ضياع اللحمة، وترسيخ الغرور والكبر، واستنبات التعالي والتسفيه، وربما أدى إلى التألي على الله في فتح باب الثواب لفئة دون فئة وفعل دون فعل».

- الحديث يدفع رؤية الأعمال بشكل واحد ونمط واحد، كما أنه يمنع أن يقاس الالتزام والتدين على فعل الإنسان نفسه بل هو بالرجوع إلى الشرع وما وسع الشرع فجاء به الناس فهو عين الالتزام والتدين والاتباع حتى وإن لم يأت به المسلم من اختياره وعاداته.

- في الحديث بيان لتقرير النبي ﷺ الذي من خلاله يدخل في سنته ويرضى عن أصحابه ويستحسن فعال الجميع ويفتح من خلاله ترك حرية الاختيار في الفعل والترك كل على حسب الطاقة والرؤية.

تطبيق هذا المنهج في الواقع الأوربي:

- عدم الحجر على اختيارات المسلم الأوربي في طريقة تعبده وتعامله ما وسعته الشريعة الغراء في الفعل جوازا بنص أو قياس.
- تفهم اختيارات الناس الفقهية لما يرونه في تسير مصالحهم وعدم رميهم بالتبدع والمخالفة لعدم تبني مدرسة الناصحين أو المحاورين لهم ومثال ذلك « من يأخذ ببعض فتاوى المجلس الأوربي ومن لا يأخذ بها في بعض القضايا المعاصرة الشائكة والتي تحمل وجهتي النظر واختلاف الآراء.
- ترك قرار ارتداء الحجاب للبنت بعد بلوغها مع استيفاء دور الأبوين في النصح والإرشاد وتوضيح الأمر إسلاميا وبيان المآلات.
- احترام دوافع الناس في صدقاتهم وزكاتهم أداءا وإخراجا مع أهمية توضيح أهم أبوابها هنا بما لا يورث خللا في تركها بتضييع أبوابها الواقعية.
- عرض الفتاوى دائما بكل ما تحمله من خيارات وعدم حمل الناس على رأي واحد أو فتوى مدرسة بعينها مع البيان لما يناسب الواقع الأوربي من هذه الفتاوى.
- تربية الأبناء في الواقع الأوربي على هذا الأمر في حرية الاختيارات الدراسية والترفيهية بما يتناسب مع شريعتنا ويتماشى مع بيئتنا.
- ترك اختيار شريك الحياة للزوجين دون حمل على قومية أو تمييز لجالية دون

غيرها على أساس عرفي أو بيئي أو لوني أو غير ذلك.

وهناك صور كثيرة غير هذه من الممكن أن يضيفها الإمام والداعية في كلامه وحواراته تفرزها الحوادث التي تمر به.

وفي الختام فإن المسلم يحتاج في تفعيل هذا المنهج إلى ما يلي:

* استحضار الرؤية الشاملة للشريعة الإسلامية.
* إدراك خصائص من هذه الشريعة وعلى رأسها المرونة والسلاسة التي جاءت به.
* حضور فقه الاختلاف الذي يجمع ولا يفرق بين الناس كلما ألم به المسلم وفهم وجوده.
* التأكيد على اختلاف الميولات والأولويات عند الناس ما يجعل الانشغال بالنفس أهم وأولى.
* نقل الخبرات وتوضيح المشكلات في بعض الاختيارات التي مرت ببعض الناس مما يجعل الإنسان في رؤية واضحة فيها ومعها.

والله أعلم

الصوم واستكمال ما بدأه الآخرون

أخرج البخاري ومسلم عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ»، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ امْرَأَةً أَتَتْ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَتْ: إِنَّ أُمِّي مَاتَتْ وَعَلَيْهَا صَوْمُ شَهْرٍ، فَقَالَ: «أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَيْهَا دَيْنٌ أَكُنْتِ تَقْضِينَهُ؟» قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ: «فَدَيْنُ اللهِ أَحَقُّ بِالْقَضَاءِ»

المعنى العام للحديث:

في الحديث نقف بعين الإجلال لهذا الجمال النبوي في توجيه الناس إلى هذه القضية العظيمة المتعلقة باستكمال ما بدأه الآخرون أو استكمال نقص الأخرين، فقد جعل الله عز وجل هذه الأمة أمة متراحمة فيما بينها من سماتها جبر بعضها في تقصير أو نقص أو استدراك فوت، وكأننا أمام جسد حقيقي فعلا كما عرفها النبي ﷺ : فعند مسلم عَنِ النُّعْمَانِ ابْنِ بَشِيرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى» كما أنه من سماتها شد بعضها ببعض كما قال ﷺ «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» للوصول إلى الغاية المرجوة في الدنيا بتحقيق مناط الأخوة والحب في الله وفي الآخرة الفوز

بالجنة ورضوان الله، نحن أمام عظيم فتح أفق التساؤلات عند العلماء لما يحمل من خير قال ابن حجر: « أَيْ هَلْ يُشْرَعُ قَضَاؤُهُ عَنْهُ أَمْ لَا وَإِذَا شُرِعَ هَلْ يَخْتَصُّ بِصِيَامٍ دُونَ صِيَامٍ أَوْ يَعُمُّ كُلَّ صِيَامٍ وَهَلْ يَتَعَيَّنُ الصَّوْمُ أَوْ يُجْزِئُ الْإِطْعَامُ وَهَلْ يَخْتَصُّ الْوَلِيُّ بِذَلِكَ أَوْ يَصِحُّ مِنْهُ وَمِنْ غَيْرِهِ وَالْخِلَافُ فِي ذَلِكَ مَشْهُورٌ لِلْعُلَمَاءِ كَمَا سَنُبَيِّنُهُ».

استكمال ما بدأ الآخرون في القرآن الكريم

لقد جاءت مواقف كثيرة توضح أهمية هذا المنهج في حياتنا أسس القرآن الكريم من خلال عرض صور للأنبياء والمرسلين والصالحين في قراءات متنوعة تخدم هذه القضية، قال تعالى: ﴿ **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ (١٤) (يس)، وقوله تعالى: وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢)﴾ (يس).**

إن الأمثلة على هذا الأمر وهذه القضية متوافرة فما أرسال الرسل إلى قومهم أو إلى قوم واحد كبني إسرائيل إلا لاستكمال مسيرة من سبق منهم في عمله ودعوته، وما قام به مؤمن آل فرعون وآل يس إلا تأكيدا لهذا الدور العظيم الذي جاء به الإسلام وأسسه كمنهج في حسن التعامل ودفع الأنا والفردية

والرؤية الشخصية في التوجه والحركة وطلب النجاة.

وأما هذه المنهجية في السنة النبوية فقد جاءت لنا بأمثلة كثيرة منها:

استكمال النبي ﷺ لما نقص من فعال الآخرين: **فعند البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَنَا أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، فَمَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ وَلَمْ يَتْرُكْ وَفَاءً فَعَلَيْنَا قَضَاؤُهُ، وَمَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ»** فالنبي ﷺ يعلمنا في هذا الحديث المبارك كيفية تفعيل هذه المنهجية فأعلن بين يدي الناس أنه كفيل بكل من مات وعليه دين فالنبي ﷺ يكمله ويوفيه إياه لا يترك صحيفته لا تغلق ولا عمله لا يرفع فيسد ثغرته ويستكمل نقص فعال الآخرين ممن أدركهم الموت فيوفيهم إياه وهو بهذا يشرع ويعلم ﷺ.

استكمال الصحابة ديون آبائهم: **فعند البخاري عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: تُوُفِّيَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَرَامٍ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ، فَاسْتَعَنْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى غُرَمَائِهِ أَنْ يَضَعُوا مِنْ دَيْنِهِ، فَطَلَبَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ فَلَمْ يَفْعَلُوا، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «اذْهَبْ فَصَنِّفْ تَمْرَكَ أَصْنَافًا، العَجْوَةَ عَلَى حِدَةٍ، وَعَذْقَ زَيْدٍ عَلَى حِدَةٍ، ثُمَّ أَرْسِلْ إِلَيَّ»، فَفَعَلْتُ، ثُمَّ أَرْسَلْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَجَاءَ فَجَلَسَ عَلَى أَعْلاَهُ، أَوْ فِي وَسَطِهِ، ثُمَّ قَالَ: «كِلْ لِلْقَوْمِ»، فَكِلْتُهُمْ حَتَّى أَوْفَيْتُهُمُ الَّذِي لَهُمْ وَبَقِيَ تَمْرِي كَأَنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ شَيْءٌ وَقَالَ فِرَاسٌ عَنِ الشَّعْبِيِّ، حَدَّثَنِي جَابِرٌ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «فَمَا زَالَ يَكِيلُ لَهُمْ حَتَّى أَدَّاهُ»، وَقَالَ هِشَامٌ: عَنْ وَهْبٍ، عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: النَّبِيُّ ﷺ: «جُذَّ لَهُ فَأَوْفِ لَهُ».**

وفعل عبد الله بن الزبير: فعند البخاري: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: لَمَّا وَقَفَ الزُّبَيْرُ يَوْمَ الجَمَلِ دَعَانِي، فَقُمْتُ إِلَى جَنْبِهِ فَقَالَ: « يَا بُنَيَّ، إِنَّهُ لاَ يُقْتَلُ اليَوْمَ إِلَّا ظَالِمٌ أَوْ مَظْلُومٌ، وَإِنِّي لاَ أُرَانِي إِلَّا سَأُقْتَلُ اليَوْمَ مَظْلُومًا، وَإِنَّ مِنْ أَكْبَرِ هَمِّي لَدَيْنِي، أَفَتُرَى يُبْقِي دَيْنُنَا مِنْ مَالِنَا شَيْئًا؟ فَقَالَ: يَا بُنَيَّ بِعْ مَالَنَا، فَاقْضِ دَيْنِي، وَأَوْصَى بِالثُّلُثِ، وَثُلُثِهِ لِبَنِيهِ - يَعْنِي بَنِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ - يَقُولُ: ثُلُثُ الثُّلُثِ، فَإِنْ فَضَلَ مِنْ مَالِنَا فَضْلٌ بَعْدَ قَضَاءِ الدَّيْنِ شَيْءٌ، فَثُلُثُهُ لِوَلَدِكَ «، - قَالَ هِشَامٌ: وَكَانَ بَعْضُ وَلَدِ عَبْدِ اللَّهِ، قَدْ وَازَى بَعْضَ بَنِي الزُّبَيْرِ، خُبَيْبٌ، وَعَبَّادٌ وَلَهُ يَوْمَئِذٍ تِسْعَةُ بَنِينَ، وَتِسْعُ بَنَاتٍ -، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَجَعَلَ يُوصِينِي بِدَيْنِهِ، وَيَقُولُ: «يَا بُنَيَّ إِنْ عَجَزْتَ عَنْهُ فِي شَيْءٍ، فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِ مَوْلاَيَ»، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا دَرَيْتُ مَا أَرَادَ حَتَّى قُلْتُ: يَا أَبَةِ مَنْ مَوْلاَكَ؟ قَالَ: «اللَّهُ»، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا وَقَعْتُ فِي كُرْبَةٍ مِنْ دَيْنِهِ، إِلَّا قُلْتُ: يَا مَوْلَى الزُّبَيْرِ اقْضِ عَنْهُ دَيْنَهُ، فَيَقْضِيهِ... الحديث».

إن النماذج حول هذا الأمر أكثر من تحصى وقد عددتها السنة النبوية في مجالات متعددة فمن استكمال ديون العباد مع الله من أوليائهم في الحج والصوم والزكاة وغير ذلك إلى استكمال ديون العباد مع العباد من ديون وديات وحقوق وكل هذا تأسيسا لمعاني استكمال نقص الآخرين والإعانة على إتمام الأعمال بين يدي الله والعباد.

استكمال ما بدأه الآخرون في العلم:

عاش المسلمون هذه السنة وفهموا أنها توجيه عام يدخل في كل شيء وكان في الصدارة منهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فهبوا لاستكمال مشاريع من سبقهم إكمالا أو شرحا أو تعقيبا لنضرب على هذه المنهجية نماذج منها:

المجموع للإمام النووي: فقد شرع الإمام العلم محي الدين النووي إلى كتاب يشرح فيه كتاب المهذب في فقه الشافعية للإمام الشيرازي، فعالجته المنية قبل أن يكمله وقد وصل فيه إلى حدود كتاب البيوع، فجاء تلميذه ابن العطار فاستكمل شرح شيخه أخذا بهذه السنة المؤسسة ولكن قدر الله أن يموت ابن العطار ولم يكمله حتى أتى تاج الدين السبكي فأكمل شرحهما وتمم الكتب المجموع في شرح المهذب.

تفسير جلال الدين المحلي لكتاب الله: فقد بدأ فيه من أول سورة الكهف إلى آخر القرآن فأكمله جلال الدين السيوطي وأصبح الكتاب معروفا بتفسير الجلالين وكتب الله له القبول.

كتاب طرح التثريب في شرح تقريب الأسانيد: الذي ألفه الإمام المحدث زين الدين عبد الرحيم العراقي ليعين ولده على حفظ الأحاديث المتعددة ذات الإسناد الواحد ثم شرع في شرحه عليه في كتابه الماتع طرح التثريب ثم عالجته المنية وتوفي قبل كماله فأكمله ولده المحدث أبو زرعة العراقي.

وتهذيب الكمال في أسماء الرجال: الذي هو تهذيب لكتاب الكمال لبعد الغني المقدسي فإذا بالحافظ المزي يهذبه ويضيف عليه ويخرجه في صورة تفوق أصله في تهذيه هذا، ثم لا يلبس تلميذه ابن مغلطاي فيكمل الكتاب في كتابه إكمال تهذيب الكمال ...

وهكذا فما أعظم هذه الأمة التي استكمل علماؤها ما بدأه الآخرون حرصا لهم على الأجر التام ووفاء بينهم ورحما تحت ظلال العلم وقربة إلى الله تعالى في جبر كسرهم ومجاوزة قصورهم.

ولنرجع إلى حديثنا في الصوم ونقف منه على فوائد مهمة:

- ففي الحديثين أولا بيان اهم ما يجب أن يسد عن العبد فيما شرع فيه ولم يكمله وهي ديون العباد لله تعالى.

- في الحديث بيان لبر الأبناء وحرصهم على إتمام الأجور لأباءهم وأمهاتهم بل وخوفهم عليهم من ضياع ما بدأوه أو ما نقص من عملهم ولم يكملوه.

- في الحديث بيان لصورة البر الذي يكون بعد الوفاة وانتقال العباد إلى الدار الآخرة في استكمال نقصهم واتمام مشروعهم بعد وفاتهم فكيف به في حال حياتهم إن هم عجزوا عن فعلهم بمفردهم واحتاجوا الإعانة عليه وفي طلب إبراهيم عليه السلام من ولده إسماعيل في بناء الكعبة ما يستدل على ذلك.

- في الحديث تتبع الأبناء لأعمال الآباء وهو تتبع يستدل على جميل الصحبة وإدراك العمل المقدم المتم منه والفائت، وفي معرفة هذا وحصره وعده معاني

عظيمة من قرب وصلة ومعايشة وبره وملازمة وغير هذا مما يجعله يدرك أمره ويستكمل فوته.

- الحديث فيه بيان جمال العلاقة بين السابقون واللاحقون وأنها غير قائمة على النفعية المادية بل قائمة على التعاون والدعم وتقديم العون واستكمال النقص فاستثمار الإنسان فيمن بين يديه من رعيته في هذا الاكمال هو الأصل.

- استكمال ما بدأه الاخرون ولم يتموه من أولويات الأبناء تجاه الآباء بعد وفاتهم حتى أنه أولى بالقضاء من حقوق العباد

- في الحديث التأكيد على إيفاء ديون الآباء وتأكيد ذلك بسؤال النبي ﷺ وهو بهذا يطمئن على نبتة الإنسان وغرسه وأن رعيته توفي حقوق الله والعباد من بعده.

- في الحديث جمال الخوف على آخرة الإنسان وحرصه ذويه ووليه من تأمين نهايته أو تغييرها باستكمال نقصه في لمحة لقوة المشاعر والخوف الحقيقي المستدعي التضحية والتفرغ للوصول لأمانه وتنعمه.

- في الحديث دعوة ضمنية لعقد النية على إتمام الأعمال وعدم التسويف وتربية الأبناء على إكمال ما بدأه الآباء والرحيل فارغا ليس عليك أحمال لم تنزلها أو اعمال لم تتمها تخفيفا على نفسك ومراعاة للقادم من بعدك.

استكمال ما بدأه الآخرون في الواقع الأوربي

- استكمال عمل من سبق في بناء المؤسسات والجمعيات الخادمة للمسلمين تفعيلا ورسالة
- تجويد عمل ما قدم مسبقا في الجمعيات والمؤسسات والزيادة عليه في إطار تغييرات الواقع
- استحداث أعمال جديدة ومؤسسات خادمة تكمل سلسلة ما قدمه السابقون إلى الأمة
- شرح وترجمة الكتب الإسلامية الهادفة والمعلمة والمفيدة للمسلم الأوربي.
- المحافظة على ما ورثه الراحلون من علوم وأفكار وخدمات وأعمال وتوالي النفع بها وتوريثها
- استكمال جميع المسارات التي شرع في بنائها المسلمون في أوربا ولم يكتب لها الخروج للنور أو الاستكمال كالمسارات السياسية والاقتصادية والدينية وغيرها التي تهدف إلى توطين المسلم وتقديمه نموذجا فاعلا في بلده ووطنه.
- استكمال الدفاع عن القضايا الإسلامية وخاصة تلك التي لم يعترف بها بما يخص الوجود الإسلامي والتي تساعد عند الفوز بها على المواطنة وضمان الحرية وتأكيد الاحترام ونفي التمييز.
- استكتاب الأبحاث والمؤلفات بما يهم المسلم الأوربي وقضاياه وخاصة المستحدثة استكمالا لما قام به السابقون من نفس الفعل في القضايا التي طرحت

بين أيديهم.

وغير ذلك كثير:

وفي الختام: تفعيل هذه المنهجية يؤدي إلى:

- يجعل الأمة سائرة في ركبها الصحيح فهي لا ترجع لتبني من البداية بل تسير لتستكمل ما قدمه من سبق.
- تساعد هذه المنهجية على الانتقال الطبيعي السلسل بين القيادات وإدراك قيمة ما قدم وفتح الباب.
- تقلل هذه المنهجية من النقد الهدام والازدراء والتسفيه من اعمال الآخرين وترتبط أكثر بفكرة البناء لا النقد.
- تجعل المتوارثون على العمل يرتبطون بالأعمال لا الأفراد.
- يقوي هذا الأمر الإنتاج ويعالج الخطأ في أضيق الحدود.
- يقوي العمل المنظم الذي يبني بعضه على بعض ويجعل سد ثغراته وإضافته أهم إنجازاته.
- يقوي غلبة الارتباط بالأجر الأخروي على الدنيوي ويطرد حظ النفس ورؤيتها في الأعمال.

الصوم والتربية الوقائية

أخرج أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « الصِّيَامُ جُنَّةٌ، وَحِصْنٌ حَصِينٌ مِنَ النَّارِ» صحيح

المعنى العام للحديث

تعددت أحاديث النبي ﷺ في بيان فضائل الصيام ورمضان وقد جاءت متنوعة العطاء مضمونة الأجر مرغبة في الفعل من هذه الأحاديث الحديث الذي بين يدينا وهو يتكلم عن ما يفعله الصوم بصاحبه وكيف يصل من خلاله الإنسان إلى تحصيل الفوائد على كافة مستوياته الجسدية والروحية والفكرية وقد بين النبي ﷺ هنا جانب الوقاية في الصوم وأنه يحصن الإنسان من الدخول في النار لكنه أجمل ﷺ ولم يفصل ويوضح في أي مقام تكون هذه الوقاية، وهذا يدفعنا إلى الوقوف على هذا المعنى وتعميق التفكير فيه والهدف من ورائه وهذا في النقاط الآتية:

معنى الجُنّة: قد أمعن الشارحون لحديث رسول الله ﷺ في فهم هذه الكلمة والطواف حولها وتعددت فهوم العلماء في بيانها وحدها؛ فقد قال الإمام النووي في تفسير كلمة جنة: هُوَ بِضَمِّ الْجِيمِ وَمَعْنَاهُ سُتْرَةٌ وَمَانِعٌ مِنَ الرَّفَثِ وَالْآثَامِ،

وَمَانِعٌ أَيْضًا مِنَ النَّارِ، وَمِنْهُ الْمِجَنُّ وَهُوَ التُّرْسُ، وَمِنْهُ الْجِنُّ لِاسْتِتَارِهِمْ، وقال ابن حجر: « وَالْجُنَّةُ بِضَمِّ الْجِيمِ الْوِقَايَةُ وَالسَّتْرُ، وَقَدْ تَبَيَّنَ بِهَذِهِ الرِّوَايَاتِ مُتَعَلَّقُ هَذَا السَّتْرِ وَأَنَّهُ مِنَ النَّارِ وَبِهَذَا جَزَمَ بن عَبْدِ الْبَرِّ، وَأَمَّا صَاحِبُ النِّهَايَةِ فَقَالَ مَعْنَى كَوْنِهِ جُنَّةً: أَيْ يَقِي صَاحِبَهُ مَا يُؤْذِيهِ مِنَ الشَّهَوَاتِ، وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ جُنَّةٌ أَيْ سُتْرَةٌ يَعْنِي بِحَسَبِ مَشْرُوعِيَّتِهِ فَيَنْبَغِي لِلصَّائِمِ أَنْ يَصُونَهُ مِمَّا يُفْسِدُهُ وَيَنْقُصُ ثَوَابَهُ وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ إِلَخْ وَيَصِحُّ أَنْ يُرَادَ أَنَّهُ سُتْرَةٌ بِحَسَبِ فَائِدَتِهِ وَهُوَ إِضْعَافُ شَهَوَاتِ النَّفْسِ وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ يَدَعُ شَهْوَتَهُ إِلَخْ وَيَصِحُّ أَنْ يُرَادَ أَنَّهُ سُتْرَةٌ بِحَسَبِ مَا يَحْصُلُ مِنَ الثَّوَابِ وَتَضْعِيفِ الْحَسَنَاتِ وَقَالَ عِيَاضٌ فِي الْإِكْمَالِ مَعْنَاهُ سُتْرَةٌ مِنَ الْآثَامِ أَوِ مِنَ النَّارِ أَوْ مِنْ جَمِيعِ ذَلِكَ».

وقفة مع وقاية الصوم وتفعليها

- لم يذكر النبي ﷺ مناط الوقاية للصوم تحديدا، بل جعل الأمر متسع وكأنه يحمل لغة العموم فالصوم وقاية للجسد وقد دلت الأثار والأحاديث على ذلك وأكدته البحوث العلمية الحديثة بإعجاز علمي متنوع لأهمية الصوم في علاج كثير من الأمراض الجسدية، وكأن الصائم بصومه يحد من تفحل ألمه البدني، أو من دخول المرض عليه، فقلما تجد صائما مفعلا له في حياته إلا وقد استقام جسده وبرأ من علل الأجساد وسلم من كثير من الأمراض.

- والصوم وقاية للروح، فهو عبادة روحانية بامتياز تهيج العبد على الارتقاء والنقاء الارتقاء بصومه عن سفاسف الأمور وإثم الأركان والجوارح، وترك الدنايا، وهو نقاء في تنقية القلب وتثبيت فطرته النقية المصبوغة بالصبغة الإسلامية التعبدية، ولذلك لا تجد صائما إلا وهو محلق بروحه في سمائية الأخلاق والقيم والتعامل، فلا شهوانية تجرف ولا معاصي تقيد.

- والصوم أيضا وقاية للعقل والفكر فكلما صفت روح الإنسان وسمت نفسه ارتفعت معها مؤشرات الفهم والتفكير عنده فلا طريق لدخول الشبهات أو الانحرافات وكأن الصوم يقي كل شيء في الإنسان من الدخول لمناطق العطب أو التمادي فيه، بل هو مهيج للعقل على التدبر والفكر فيما يحيط بأجواء الصوم من أمور ودلالات.

- والصوم وقاية للإنسان من الزلل والخطأ والمعصية فكلما هم تذكر وكلما فتحت بين يده بابها أغلقها دونه،

- والصوم يورث فقه الخوف من ضياع المجهود إذا أفسد الإنسان الصوم فقد بذلت كثيرا من المتاعب في تحصيل أجره واغتنام نفعه فتراه ينتبه لخطوات نهاره وليله خشية أن ينقض غزله وهذا أيضا جانب من جوانب الوقاية.

التربية الوقائية في حياتنا: لعلنا عندما نقرأ القرآن الكريم والسنة والنبوية نقف على كثير من الأوامر التي تدفعنا إلى إحياء فقه الوقاية والتربية الوقائية في حياتنا من ذلك قول الله عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم**

ناراً...﴾ الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم ...﴾ الآية ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» ومن السنة ذلك حديث النبي ﷺ **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: « فِرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ فِرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ (رواه أحمد وهو صحيح)** وغير ذلك من آيات القرآن الكريم والسنة النبوية الدافعة إلى تفعيل هذا الفقه وإحياء هذا المنهج التربوي في حياة المسلم.

التربية الوقائية تخلق وتورث إنسانا مختلفا من سماته ما يلي:

- الرؤية الشاملة للأمور: وعدم القصور في قراءتها أو الانجرار للتعميم ببعض أجزائها فلا تحمد عندئذ العواقب.
- الروية والتريث في المعاملة: وعدم التعجل في المواقف والأحوال والأمور إذ تدفعه تربيته الوقائية إلى دراسة الأشياء ومعطياتها قبل البت فيها.
- الاستقلالية في الإقدام والطرح والفعل: فهي تنفي عنه التبعية المطلقة وتغييب العقل والفكر والسير بسياسة القطيع.
- الاحتياط الدائم: الذي يعين على إبصار مواطن الأقدام ومواقع الأركان وبيان اللسان فصاحبه من أثر وقايته لا ينجرف ولا تذل له قدم ثابت الخطى مدرك لمالات الأمور.
- إدراك السنن الحياتية والكونية: فما الآخذ بالتربية الوقائية والتنشئة عليها إلا

لعمق البصيرة ووضوح السنن أمام الإنسان ما يجعله على أتم الاستعداد إذا ما مرت عليه.

- الشخصية الحذرة: فلا هو بالمطمئن الدائم الذي يورثه استغلال الآخر له وخديعته إياه فيكون خبا وفريسة لمن لا يخاف الله فيه، ولا هو بالخائف الشديد الذي يورث خوفه قعودا وفتورا ونأيا عن الناس والمخالطة، حذر في وقته كما هو واضح في نداء الرحمن لأهل الإيمان.

- إدراك مواطن القوة والضعف في النفس والناس والأشياء: فالتربية الوقائية تعني إبصار مواطن الضعف التي تستدعي تواجد هذه التربية بقوة وتعزز من جمع أسبابها وتحصيلها لمواجهة هذا الضعف الذي قد يعدي بطبعه أو ينتقل لنفسه وجسده، وعند تفعيل هذه التربية فهو من تمام القوة.

- مجاوزا لأخطاء الآخرين: فالتربية الوقائية إنما تفرض وجودها والحمل على الأخذ بها عندما تتعدد من الأخرين غير المفعلين لها ما يورث ندما أو ضعفا أو مرضا أو تأخرا وكل هذا يجعل من يفعل هذه التربية متجاوزا لمن رآهم أو سمع عنهم بما حل بهم فيسلم وينجو.

- المسؤولية: فإن المحي للتربية الوقائية في نفسه إنما هو ممن يتحمل المسؤولية ويسند إليه الأمور إذ أنه إنسان يحمل من الواقعية والتبعة والتأني والإدراك ما يجعله مدركا لخطواته متحملا وراعيا لأماناته.

- الأخذ بالأسباب: وهو أمر دعا إليه الإسلام بوحييه في التزود به وتفعيله في

كل ما يقبل عليه الإنسان، وما التربية الوقائية إلا من هذا الأمر الذي يؤكد التزام المسلم بالجمع بين جناحي الأخذ بالأسباب والتوكل على الله، ولعل الصوم قد ذكر في حديث آخر يدفع الإنسان الذي لا يستطيع أن يتزوج إلى الإكثار منه أخذا بالأسباب التي تحصنه حتى يتيسر له.

و هناك سمات أخرى تحملها التربية الوقائية منها إجمالا: « وجود فقه التدافع في حياته تفعيل التحكم والسيطرة على الأمور تنمية شدة الملاحظة عنده» وغير ذلك.

التربية الوقائية والواقع الأوربي:

لعل البيئة الأوربية تعزز بقوة وجود هذه التربية الوقائية على مدار حياة الإنسان فما يسن من قوانين ويوضع من محاذير ويساق من إرشادات في كل عمل مادي ومؤسسة وهيئة نذكر منها:

- تفعيل قوانين الأمن الوقائي في كل ما يخص سلامة الأفراد والمجتمعات والمنشئات بشكل على كافة القطاعات بشكل من الدقة والحزم.
- وضع لافتات إرشادية في كل مكان تضمن سلامة الفرد والمجتمع في أوربا.
- تفعيل التربية الوقائية الصحية بشكل كبير في أوربا وقد كان له الأثر الكبير في تجاوز محنة كورنا
- عدم الترخيص للمنشأة والمؤسسات إلا بعد التأكد من عناصر السلامة

واتخاذ التدابير الأمنية والوقائية.

- إدخال التربية الوقائية كجزء من المنظومة التعلمية للطلاب في المدارس.

- وضع الغرامات الشديدة في انتهاك هذه اللوائح والقوانين التي تخص سلامة الناس وغير هذا.

ويمكن في النهاية أن أقول كلمة تخص قضية الصوم وتصدير التعريف به في المجتمع الأوربي وهو إن من جميل إبراز فريضة الصوم وإبراز فكرتها في الواقع الأوربي والغربي: هو ربطه بقضية التربية الوقائية والمنهج الوقائي من منظوره المختلف الصحي والنفسي والجسدي والفكري وغير ذلك-و، عندها سيكون هناك من يستوعب الفريضة ويفهم فرضية الدين لها وأهميتها في بناء مسلم وقائي صالح مستفيد من صيامه في بناء نفسه وارتقاء عمله.

فرائد وفوائد من حديث الأعرابي

للشيخ: كمال عمارة

رئيس المجلس الأوروبي للأئمة

المستشار الشرعي للرابطة الإسلامية في النرويج

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله هلكت.

قال: ما لك؟ قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم.

فقال رسول الله ﷺ: هل تجد رقبة تعتقها؟ قال: لا

قال: فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ قال: لا

فقال فهل تجد إطعام ستين مسكينا؟

قال: لا

قال، فمكث النبي ﷺ. فبينا نحن على ذلك أتي النبي ﷺ بعرق فيها تمر، - والعرق المكتل قال: أين السائل؟ فقال: أنا. قال: خذها فتصدق به. فقال الرجل: أعلى أفقر مني يا رسول الله؟! فوالله ما بين لابتيها - يريد الحرتين - أهل بيت أفقر من أهل بيتي. فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه، ثم قال: أطعمه أهلك [1]

(١) رواه البخاري (١٩٣٦) في كتاب الصوم وكتاب الأدب من طريق آخر وفيه حتى بدت نواجذه، ومسلم (١١١١) وفيه: قال هلكت قال وما أهلكك، وأبو داود (٢٣٩٠)، وفيه: قال هلكت قال فما شأنك. وفي آخره: حتى بدت ثناياه. ومن طريق آخر: أنيابه، والنسائي (٣١١٤)، والترمذي (٧٢٤)، وفيه: اجلس فجلس، وسنن الدارقطني (٢٢٧١) وفيه: ويحك وما ذاك؟ وفي آخره: خذه واستغفر الله وأطعمه أهلك، وابن ماجه (١٦٧١).

الفائدة الأولى
في اللغة ومعاني المفردات

قوله: (بينما نحن جلوس) بينا وبينما بمعنى واحد، كما جزم بذلك صاحب مختار الصحاح، أصلهما «بينَ أُشبعت الفتحة في بينا فصارت ألفاً، وهي على وزن فَعْلى، وزِيدت «ما في بينما ». ومن خاصة بينما أنه يدخل على جوابها إذ و إذا حيث تجيء للمفاجأة، بخلاف «بينافلا يدخل على جوابها واحد منهما، واللفظان قد وردا في هذا الحديث.»

(جُلوس): جمع تكسير من اسم الفاعل جالس وجمعه السالم جالسون.

قوله: (وقعت على امرأتي): كناية عن الجماع

(بعَرَق): العرق - بفتحتين - والمكتل -بكسر الميم - هو القفة من الخوص، تصنع من سعف النخل، وقدرت سعته بخمسة عشر صاعاً.

(لابتيها): اللابة هي الحَرَّة: وهي الأرض التي تعلوها حجارة سود، وهاء الضمير راجعة إلى المدينة المنورة.

(حتى بدت أنيابه) الأنياب جمع ناب، جاء في لسان العرب «النَّابُ مذكر، من الأَسنانِ. ابن سيده: النَّابُ هي السِّنُّ التي خلف الرَّباعِيَةِ». وفي فقه اللغة للإمام الثعالبي:«للإنْسِانِ أرْبَعُ ثَنَايَا. وَأرْبَعُ رَبَاعِيَّاتٍ. وَأَرْبَعَة أَنْيَاب. وأَرْبَعُ ضَوَاحِكَ. وَثِنْتَا عَشْرَةَ رَحًى في كُلِّ شِقٍّ سِتّ. وأَرْبَعَةُ نَوَاجِذَ وهي أقْصَاهَا».

الفائدة الثانية

في خصائص مجلس النبي ﷺ

كانت مجالس النبيﷺ إطاراً تتنزل فيه الآيات، وتتوضح فيه العقائد، وتتبين فيه الأحكام، وتتقوم فيه الأخلاق. كانت المجال الذي تلتقي فيه الأرواح وتتصافى فيه الأنفس وتُشحذ فيه الهمم. إنه مجلس النبيﷺ، أشرفِ الأنبياء وسيدِ الحكماء، يلوذ به أصحابه، يعمرون قلوبهم بمحبته وينورون دروبهم بالتعلم منه والتأسي بسيرته. إنه المدرسة التي تخرجت بها تلك الأجيال التي حملت المشعل ونشرت الرسالة في الآفاق، لذلك لم يكن عجبًا أن تصدرعن تلك المجالس أحاديث عظيمة وآثار جليلة، جمعت أصول الإسلام وقواعد الإيمان، فقد صدرت مئات الأحاديث عن مجالس النبي ﷺ، اختار إحداها الإمام مسلم ليفتتح بها سفره العظيم، لتكون بدايةُ رحلته مع النبي الكريم وهديه العظيم من: (بينما كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ).

وكان من شرف مجلسه ﷺ أن ذكره الله تعالى في القران الكريم، فقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (المجادلة ١١)**

روى الإمام الطبري بسنده عن مجاهد أنه قال: (تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ) هو مجلس النبيّ ﷺ كان يقال ذاك خاصة.

كما شرف الله تعالى هذا المجلس بوضع آدابه وحدوده فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المجادلة ١-٥)

ولم تكن مجالسه ﷺ قاصرة على الوعظ والتعليم المباشر، إذ لم يكن النبي ﷺ يُثقل على أصحابه بالموعظة، بل كان ﷺ يتخللهم بها، كما جاء في صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود: «كانَ النبيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنا بها (أي الموعظة)، مَخافَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنا». بل كان يعرض فيها ما يتعلق بحاجة الناس في دينهم ومعاشهم وسائر أمرهم، ولا يخلو أن يتذاكر عنده القوم أخبار الجاهلية ويتضاحكون، فما يزيد ﷺ على التبسم.

وأغلب مجالسه القارة ﷺ كانت بعد الصلاة، عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ قَالَ: قُلْتُ لِجَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ أَكُنْتَ تُجَالِسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ، كَثِيرًا، كَانَ لَا يَقُومُ مِنْ مُصَلَّاهُ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ الصُّبْحَ أَوْ الْغَدَاةَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ فَإِذَا طَلَعَتْ الشَّمْسُ قَامَ. وَكَانُوا يَتَحَدَّثُونَ فَيَأْخُذُونَ فِي أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ فَيَضْحَكُونَ وَيَتَبَسَّمُ. (صحيح مسلم)

ثم ما يكون منها في زياراته ومتابعاته لشؤون المسلمين، **فعن أنس - رضي الله عنه - قال: «كان رسول الله - ﷺ - يزور الأنصار، فيسلم على صبيانهم، ويمسح برؤوسهم، ويدعو لهم» (سنن النسائي)، وفي المستدرك عن سهل بن حنيف - رضي الله عنه - قال: «كان رسول الله - ﷺ - يأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم، ويعود مرضاهم، ويشهد جنائزهم» (رواه الحاكم والبيهقي)**، ولا يخلو ذلك من اجتماع ومجالسة يتخللها نصح وتعليم وإرشاد وأمر بمعروف ونهي عن منكر. أما إذا طرأ أمرٌ ذو شأن، أمرَ من ينادي (الصلاة جامعة) فيكلم المسلمين فيما جمعهم إليه، فإن كان وحي بلّغهم، وإن كان أمر أو نهي أمرهم ونهاهم، وإن كان في ء قسمه بينهم وإن كان بعث بعثه ﷺ. كما كان ﷺ يخص بعض كبار أصحابه، كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، بمجالس خاصة يشاورهم فيها في أمور مستعجلة أو قضايا مستشكلة.

وكان ﷺ يجلس كما يجلس أصحابه دون أن يتميز عنهم بهيئة أو موضع، وكان يتكئ أحياناً، **فعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: «رأيت رسول الله ﷺ متكئًا على وسادة على يساره» (رواه الترمذي وأبو داود)**

وهذا دليل على تواضعه وخفض جناحه للمؤمنين، ﷺ، فما كان القادم من غير أهل المدينة يميزه عن أصحابه، إذ لم يكن له حرس أو حشم، ولم يتخذ تاجاً أو عرشاً، ولم يُغْره ﷺ ما يسمعه عن بهرجة الملوك وعروشهم أن يسلك مسلكهم، بل استغنى عن ذلك كله بما يقذفه الله من الحب والمهابة في قلوب

من يراه، من غير تكلف ولا تصنع، بل صفة سماوية وهبة ربانية، مهدت له النفاذ إلى قلوب الناس دون مظاهر العظمة الزائفة والفخامة الزائلة، فإن الله تعالى أعطاه من القبول والمهابة بين الناس ما لم يعط الملوك والسلاطين من أصحاب العروش المشيدة والصروح الممردة. وهذا من دلائل نبوته ﷺ.

يقول عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في وصفه للنبي ﷺ: «مَن رآه بديهةً هابه، ومَن خالطه معرفةً أحَبَّه» (الترمذي في الشمائل، والبيهقي في الدلائل)، ووصفته أم معبد الخزاعية فقالت: «رجل ظاهر الوضاءة، أبلج الوجه، حسن الخلق .. إذا صمت علاه الوقار، وإن تكلم علاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحلاهم وأحسنهم من قريب (سيرة ابن هشام). **وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: «وما كان أحدٌ أحب إليَّ من رسول الله ﷺ، ولا أجلَّ في عينيَّ منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالًا له، ولو سُئِلْتُ أن أصفه ما أطقْتُ، لأني لم أكن أملأ عيني منه، ولو متُّ على تلك الحال لرجوتُ أن أكون من أهل الجنة» (صحيح مسلم)** .

ومن سمة مجلس النبي ﷺ أيضا أنه كان مفتوحاً للقاصي والداني، لكل فئات الناس، صغارهم وكبارهم، **عن قرة بن إياس – رضي الله عنه –قال: (كان نبي الله – ﷺ – إذا جلس يجلس إليه نفر من أصحابه، وفيهم رجل له ابن صغير يأتيه من خلف ظهره فيقعده بين يديه) (رواه النسائي.)**

وقد ذكر الإمام ابن عاشور– رحمه الله تعالى – خمس حِكم لطبيعة مجلس

الرسول ﷺ البسيطة المفتوحة، أذكرها هنا بتصرف واختصار:

الحكمة الأولى: أن نفسه الشريفة أكمل نفسٍ، فتكون أغنى النفوس عن التوسل بغير صفاتها الذاتية، إذ لا نقص في تأثير نفسه- من أجل ذلك ادخر الله لرسوله التأييد بأوضح الدلائل، وأغناها عن العوارض التي تصطاد النفوس، وتسترهب العيون حتى لا يكون شأنه جارياً على الشؤون المألوفة.

الحكمة الثانية: ألا يكون من دواعي إيمان بعض الفرق به وطاعتهم له ما بهرهم من تلك الزخارف، كحال الذين استكبروا من قوم نوح إذ قالوا: ﴿**وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُم أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ**﴾.

وهذا معنى قول رسول الله - ﷺ: «**خيرت بين أن أكون نبيّاً عبداً أو نبيّاً ملكاً فاخترت أن أكون نبيّاً عبداً**».

الحكمة الثالثة: فيه دليل على أن جلاله مستمد من عناية الله تعالى وتأييده.

روى الترمذي أن قيلة بنت خرمة جاءت رسول الله وهو في المسجد قاعداً القرفصاءَ قالت: «فلما

رأيت رسول الله المتخشع في الجلسة أرعدت من الفرق».

فقولها: المتخشع في الجلسة أَومَأَ إلى أن شأن المتخشع في المعتاد ألا يرهب، وهي قد أَرعَدَت منه رهبة.

الحكمة الرابعة: الكمال والبر ليس في المظاهر المحسوسة، ولكنه في الكمالات

النفسية، وأن الكمال كما يحصل بالتخلق والتحلي يحصل بالتجرد والتخلي، ولذلك قال رسول الله: «أما أنا فآكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد».

الحكمة الخامسة: أن مجلس رسول الله هو مصدر الدين الموسوم ببساطة الفطرة، فكان من المناسب أن تكون هيئةُ ذلك المصدرِ على بساطة الفطرة، ليحصل التماثل بين الحالِّ والمحل «فإن الفخامة وإن كانت تبهر الدهماء فالبساطة تُبهج نفوس الحكماء، وإن بينها وبين ناموس الفطرة أشدَّ انتماء».

ولعلي أزيد على ما ذكره الإمام ابن عاشور حكماً أخرى من بينها:

الحكمة السادسة: توسعة دائرة المتلقين للهدي النبوي، لضمان الحفاظ على سنة النبي ﷺ وتبليغها من طرق متعددة تحَصِّنها من النسيان والتبديل. فقد جَعَلت مجالسُ النبي ﷺ المفتوحةُ البسيطةُ، من مجتمع الصحابة خليةً حيّةً لحفظِ الوحي وفهمه وتنزيله، حتى إذا توفي النبي ﷺ، لم يجد الصحابة من بعده صعوبة في جمع القران، ولا في الاستيثاق مما يُروى عنه من الآثار والأخبار.

الحكمة السابعة: تعميم المعرفة وتيسير سبل التعلم والترغيب فيه من خلال إتاحة الفرصة للجميع للجلوس إلى رسول الله ﷺ والاغتراف من بحر علمه وحكمته والتعرف على خلقه وهديه.

الحكمة الثامنة: تشجيع الناس على طرح قضاياهم وعرض مشاكلهم للتعامل معها في سياق الوحي المتنزل والتشريع المتدرج.

الحكمة التاسعة: ترسيخ مبادئ العدالة الاجتماعية والمساواة بين الناس، والإعلاء من قيمة العلم والتقوى كمقياس أساسي في تقييم الناس وتحديد أدوارهم.

الحكمة العاشرة: تمتين العلاقة ودعم أواصر المحبة والثقة بين الرسول القائد ﷺ وأتباعه، وتوسعة دائرة الصحبة، استكشافاً للطاقات، وتحفيزا على الرقي المعرفي والخلقي من خلال مصاحبة المثال القدوة ومجالسته ﷺ.

هذا، وقد يدخل الغريب فيقتحم مجلس الرسول ﷺ ويقطع على القوم الحديث دون أن يزجره أو ينهره، بأبي هو وأمي، **كما هو الحال في هذا الحديث أو في حديث أنس بن مالك: بَيْنَما نَحْنُ جُلُوسٌ مع النبيِّ ﷺ في المَسْجِدِ، دَخَلَ رَجُلٌ علَى جَمَلٍ، فأناخَهُ في المَسْجِدِ ثُمَّ عَقَلَهُ، ثُمَّ قالَ لهمْ: أيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟ والنبيُّ ﷺ مُتَّكِئٌ بيْنَ ظَهْرانَيْهِمْ، فَقُلْنا: هذا الرَّجُلُ الأبْيَضُ المُتَّكِئُ. فقالَ له الرَّجُلُ: يا ابْنَ عبدِ المُطَّلِبِ فقالَ له النبيُّ ﷺ: قدْ أجَبْتُكَ. فقالَ الرَّجُلُ للنبيِّ ﷺ: إنِّي سائِلُكَ فَمُشَدِّدٌ عَلَيْكَ في المَسْألَةِ، فلا تَجِدْ عَلَيَّ في نَفْسِكَ. فقالَ: سَلْ عَمَّا بَدا لكَ- (صحيح البخاري)**، وكأني به ﷺ يتمثل وصف ربه له: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ**﴾ **(آل عمران ١٥٩)، ولعلّ من بديع التناسق والتوافق في هذه الآية أن يأتي بعدها بأربع آيات قوله تعالى:﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن**

كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (آل عمران ١٦٤).

وكأن الطبيعة المفتوحة البسيطة لمجالس النبي ﷺ من معالم وخصائص التلاوة والتزكية والتعليم في منهجه ﷺ. وأشير في هذا السياق إلى مقال العلامة محمد الطاهر بن عاشور - رحمه الله - آنف الذكر، فهو جدير بالرجوع إليه. (٢)

الفائدة الثالثة

في أدب الصحابة عند النبي ﷺ

قوله: (بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ) كلمة «عند أبلغ في إفادة التعظيم والتبجيل لرسول الله ﷺ من لفظ «مع» المفيد للمعية، وإن كان في بعض طرق الحديث الأخرى «مع النبي صلى الله ﷺ». ويظهر أدب الصحابة مع الرسول ﷺ جلياً في عدم التدخل في محادثته مع السائل وعدم التقدم عليه بقول أو رأي، وهذا من تربية القران لهم في كيفية التعامل معه ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ (الفتح:٨-٩) قال المبرد: (وَتُعَزِّرُوهُ): "تبالغوا في تعظيمه».

أو كما في مطلع سورة الحجرات، التي سبق ذكرها. روى الطبري بسنده عن قتادة قال: كانوا يرفعون ويجهرون عند النبيّ ﷺ، فوعظوا ونهوا عن ذلك. وأورد أيضاً بسنده عن الضحاك أنه يقول في قوله: ﴿ لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ

(٢) محمد الطاهر بن عاشور، مجلس رسول الله - ﷺ - مجلة الهداية الإسلامية، الجزء العاشر، المجلد العاشر ص٥٧٨٥٩٧، ربيع الثاني ١٣٥٧هـ ١٩٣٨م.

صَوْتِ النَّبِيِّ . . .﴾ الآية، هو كقوله: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾ نهاهم الله أن ينادوه كما ينادي بعضهم بعضا وأمرهم أن يشرّفوه ويعظّموه، ويدعوه إذا دعوه باسم النبوّة. (تفسير الطبري)

وقد شهد بهذا الحب البديع والأدب الرفيع عروة بن مسعود -وهو مشرك قبل أن يسلم- حين عاد إلى أصحابه من عند النبي ﷺ في صلح الحديبية، فقال: ((أي قوم! والله! لقد وفدت على الملوك؛ وفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله! إن رأيت مِلِكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدًا) (رواه البخاري).

الفائدة الرابعة

فائدة حديثية

في قوله: (إذ جاءه رجل)، قال ابن حجر في فتح الباري: لم أقف على تسميته.

وهذا يندرج في أحد قسمي المبهم في علوم الحديث. وهو مبهم المتن، وقسيمه مبهم السند.

والإبهام لغة يعني خفاء الأمر وعدم بيانه، ومعناه في علوم الحديث، ما ورد من الأعيان مبهماً غيرَ مُبَين أو معرف في سند الحديث أو متنه، كرجل وامرأة وفلان وقائل وسائل، وغيرها من الألفاظ المبهمة.

ومبهم المتن أنواع، فقد يكون برجل أو سائل أو قائل، كما في حديثنا هذا، وهو من أبهمها، وقد يكون إبهامًا جزئيا، كابن فلان أو ابنة فلان، وغيرها من ألفاظ

القرابة والصلة، كالزوج والزوجة والعم والعمة والصاحب وغيرها، وقد يكون بمبهمِ الاسمِ معلومِ الصفة، كحديث ذي اليدين. وقد توجهت عناية أهل الحديث بالإبهام في السند أكثر من المتن، لتأثيره على صحة الحديث ومدى قبوله وما يترتب على ذلك من الاعتماد عليه في استنباط الأحكام الشرعية، أما إبهام المتن فأثره على الحكم والمعنى محدود لذلك قال فيه الإمام ابن كثير «وهو فن قليل الجدوى بالنسبة إلى معرفة الحكم من الحديث، ولكنه شيء يتحلى به كثير من المحدثين وغيرهم.» (٣)

وأسباب الإبهام في المتن عديدة من أهمها شك الراوي أو عدم معرفته باسم المبهم، كما في حديث جابر في السائل عن أي المسلمين أفضل، فقد أبهمه جابر وبيّنه أبو موسى الأشعري. أو التعظيم، أو الشيوع، أو التحقير، كما في أخبار بعض المنافقين، وقد يكون للاختصار والاجتزاء، لعدم دخول المبهم في الغرض الأساسي من إيراد الحديث، **كصنيع البخاري في حديث أشجِّ عبد القيس وفيه أن النَّبيَّ ﷺ قالَ لهُ: «إنَّ فيكَ خَصلتينِ يحبُّهُما اللهُ: الحِلمُ، والأَناةُ»**. وقد يكون السبب هو الستر على المسلم وتجنب الفضيحة، وهو أهمه وأكثره، وتنبني عليه الفائدة التالية:

(٣) الإمام ابن كثير الباعث الحثيث إلى اختصار علوم الحديث (١/ ٢٣٦)

الفائدة الخامسة
في خُلُق الستر وتجنب التشهير

في قوله: (إذ جاءه رجل).

عدم ذكر اسم الرجل أو التعريف به أدب رفيع وخلق قويم في ستر المبتلين بالذنوب، وعدم التشهير بهم، وبخاصة فيمن جاء مستفتياً مسترشدا، إذ ليس المقصد من ذكر القصة الفضيحة بل التعليم والنصيحة. **قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل حَيِيٌّ سِتِّيرٌ، يحب الحياء والسِّتْر» (رواه أبو داود)**. وهو مسلك معتمد في كثير من الأحاديث المروية والقصص المحكية، وقد تعلمه الصحابة من رسول الله ﷺ، إذ لم يكن ﷺ يفضح أحدًا بل يلمح ويُعَرض، حتى صارت «ما بال أقواماً»، منهجاً في النصح وقاعدةً في الدعوة والإصلاح. **عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النَّبيُّ ﷺ إذا بلَغَه عنِ الرَّجلِ الشيءُ لم يَقُلْ: ما بالُ فُلانٍ يَقولُ: كذا وكذا، ولكن يَقولُ: ما بالُ أقوامٍ يَقولونَ: كذا، وكذا» (رواه أبو داود وصححه الألباني)**. **وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من ستر عورة أخيه المسلم ستر الله عورته يوم القيامة، ومن كشف عورة أخيه المسلم كشف الله عورته، حتى يفضحه بها في بيته»**. **(سنن ابن ماجه)**. **وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلِمه ولا يُسلِمُه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلم كُرْبةً، فرَّج**

اللهُ عنه بها كُرْبة من كُرَب يوم لقيامة، ومن ستر مسلماً، ستره الله يوم القيامة» (صحيح مسلم)

وفي قصة ماعز بن مالك الأسلمي الذي جاء إلى النبي ﷺ واعترف على نفسه بالزِّنى، قال ﷺ لرجل اسمه هزَّال، أشار على ماعز بالقدوم على النبي صلى الله عليه وطلبِ إقامة الحد: «**يا هَزَّال، لو سَتَرْته بردائك كان خيراً لك**» (**رواه أحمد في المسند ومالك في الموطأ**)

الفائدة السادسة

التوبة من قريب

قوله: (فقال: يا رسول الله هلكت) لعل من أسباب استقبال النبي ﷺ للرجل بلين، ما رآه فيه من شدة الندم وصحة الإقلاع. فقد جاء هلعاً يدعو على نفسه بالويل والثبور وعظائم الأمور، ففي روايةٍ عن الزهري: جاء رجل وهو ينتف شعره ويدق صدره ويقول: هلك الأبعد ولمحمد بن أبي حفصة : يلطم وجهه ولحجاج بن أرطاة: يدعو ويله وفي مرسل ابن المسيب عند الدارقطني: ويحثي على رأسه التراب وفي رواية منصور: فقال: إن الأخر هلك والأخر بهمزة مفتوحة وخاء معجمة مكسورة بغير مد هو الأبعد، وقيل: الغائب، وقيل: الأرذل(فتح الباري) .[٤]

(٤) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب إذا جامع في رمضان ولم يكن له شيء فتصدق عليه فليكفر

وهذه كلها إشارة إلى ما كان عليه حال الرجل من الندم، والرغبة الجامحة في تجاوز الذنب ومحو آثاره. وهذا ما يجب أن يكون عليه حال المؤمن إذا ابتلي بمعصية: أن يعجل التوبة والأوبة إلى الله تعالى، فكما أنه من طبيعة الإنسان الخطأ، فإن من طبيعة المؤمن الحقِّ أن تكون المعصية في حياته استثناءً وأن تكون التقوى والاستقامة هي الأصل. الخطيئة في حيات المسلم ريح خفيفة عابرة، أما الاستقامة فمنهج حياة وحالة مستقرة عامرة. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ**﴾ **(الأعراف ٢٠١)** فالتقوى هي الأصل والمس خفيف، والطيف عابرقصير، والتذكر طريق البصيرة التي تعمر القلب والجوارح والوجدان.

المسارعة إلى التوبة بعد الذنب علامة على حياة القلب كما ورد في حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما في وصف علاقة القلب العامر بالإيمان بالذنوب: «وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: على قلب أبيضَ مثلِ الصفا، فلا تضرُّه فتنةٌ ما دامت السماوات والأرض» (صحيح مسلم).

والمسارعة إلى التوبة عن قريب أدعى لقبولها ومحو آثارها، وفيها توطين للنفس على حب الطاعات وترك المنكرات، فإن الإصرار على الذنوب وتبريرها، مهما صغرت، طريق لغواية الشيطان وغلبة الرَّين. قال تعالى: ﴿ **كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ **(المطففون ١٤)**. قال القرطبي في تفسير هذه الآية: قال المفسرون: هو الذنب على الذنب حتى يسود القلب. قال مجاهد: هو

الرجل يذنب الذنب، فيحيط الذنب بقلبه، ثم يذنب الذنب فيحيط الذنب بقلبه، حتى تغشي الذنوب قلبه . قال مجاهد: هي مثل الآية التي في سورة البقرة: ﴿ **بلى من كسب سيئة﴾ الآية** . ونحوه عن الفراء «قال: يقول كثرت المعاصي منهم والذنوب، فأحاطت بقلوبهم، فذلك الرين عليها» وقال بكر بن عبد الله: إن العبد إذا

أذنب صار في قلبه كوخزة الإبرة، ثم صار إذا أذنب ثانيا صار كذلك، ثم إذا كثرت الذنوب صار القلب كالمنخل، أو كالغربال، لا يعي خيرا، ولا يثبت فيه صلاح. (تفسير القرطبي)

قال الله تعالى: **﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء ١٧)**

-ثم يتوبون من قريب- تلك كانت سمة الصحابة رضوان الله عليهم، وهي راجعة إلى تأصّل الوعي بالإيمان ومقتضياته، وحياة القلب وصفائه وقوة العزم وصلابته. قد يعبر عنها هذا الرجل بالهروع إلى الرسول ﷺ تائباً مسترشداً، وعبر عنها أبو لبابة الأنصاري رضي الله عنه، بمجرد أن خان عهد الرسول ﷺ، حين قال: «فوالله مازالت قدماي من مكانهما حتى علمت أني قد خنت الله ورسوله»، وانطلق من موقع المعصية إلى مسجد رسول الله صلى الله وربط نفسه في عمود من أعمدة المسجد وقال: «لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله علي مما صنعت وكانت امرأته تفكه لصلاته وطعامه وقضاء حاجته، حتى نزلت توبته بعد ستة أيام كاملة.

الفائدة السابعة

مراعاة النبي ﷺ لحال السائل وتمييز مقامات تصرفات النبي ﷺ

في قوله: (قال: ما لك؟ قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم. فقال رسول الله ﷺ: هل تجد رقبة تعتقها؟ قال: لا)

رغم حالة الجلبة والإثارة التي أحدثها الرجل، فإن النبي -ﷺ- استفسره عن الأمر بحلم وأناة، فقال له ما لك وفي رواية وما أهلكك. ورغم أن الأمر يتعلق بانتهاك شعيرة عظيمة وفريضة من فرائض الإسلام، فإن النبي ﷺ أجابه مباشرة بما يتوجب عليه فعله من خصال الكفارة، دون تقريع أو توبيخ، وفي هذا إشارة إلى تدقيق النبي ﷺ في حال السائلين وتمييز مقاصدهم من السؤال، لمراعاة مقام الجواب ومقتضيات الخطاب. وفي هذا الحديث جاء الرجل مستفتيا سائلا عن المخرج مما وقع فيه، لا طالبا للموعظة مستقصدا النصيحة، وهذا بيّن من حاله، فهو عالم بالذنب مستعظم للجرم، فما عاد يجدي الاستصلاح مع الصلاح. يقول ابن دقيق العديد في شرح الحديث - استدل به على أن من ارتكب معصية لا حد فيها، وجاء مستفتيا، أنه لا يعاقب، لأن النبي لم يعاقبه، مع اعترافه بالمعصية. ومن جهة المعنى: أن مجيئه مستفتيا يقتضي الندم والتوبة، والتعزير استصلاح، ولا استصلاح مع الصلاح، ولأن معاقبة المستفتي تكون سببا لترك الاستفتاء من الناس عند وقوعهم في مثل ذلك، وهذه مفسدة

عظيمة يجب دفعها.» (٥)

وفي هذا المثال توجيهٌ للأئمة والمرشدين إلى أصل متين ومسلك حكيم في مراعات حال المستفتين، والتفريق بين مهمتهم في الفتوى والفصل بين المتنازعين، ومهمة الوعظ وما تقتضيه من ترغيب وترهيب. وإن عدم الانتباه إلى هذا الملحظ في أحوال المستفتين ومقامات المفتين يؤدي لا محالة إلى عزوف الناس عن مراجعة الأئمة وتقويض دعائم الثقة فيهم، كما أشار إلى ذلك ابن دقيق العيد -رحمه الله تعالى-.

ويحيلنا هذا الملحظ إلى مبحث واسع في أبواب المقاصد والتشريع يتعلق باختلاف أحوال النبي ﷺ بحسب المقام ونوع المخاطبين وطبيعة الخطاب. وهو مبحث خصه كثير من أئمة الإسلام بالبحث والتصنيف، فورد أولاً مفرقا في مباحث الأصول والمقاصد والشمائل كما في تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة، والشفا للقاضي عياض، والإحكام لابن حزم، إلى أن اتضحت معالمه مع الإمام العز ابن عبد السلام في كتابه «قواعد الأحكام في مصالح الأنام»، ثم اشتد عوده مع الإمام القرافي فضمنه كتابَه «الفروق»، ثم خصه بكتاب بديع نهض به وجعله مبحثاً مستقلا عن العلوم الأخرى في سِفره المسمى «الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام» وخَلُص فيه إلى أن تصرفات الرسول ﷺ دائرة على أربعة مقامات: «التبليغ، الفتوى، القضاء والإمامة»،

(٥) ابن دقيق العيد، إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام، كتاب الصيام » حديث جاءه رجل فقال يا رسول الله هلكت

ولهذا الكتاب نسخة محققة متقنة، اعتنى بها وقدم لها الشيخ العلامة عبد الفتاح أبو غدة – رحمه الله –. وقد جاء بعد الإمام القرافي من صنف في هذا المبحث وفصل فيه، كالإمام تاج الدين السبكي، والإمام ولي الله الدهلوي، في كتابه «حجة الله البالغة»، وجاء من بعدهم الإمام محمد الطاهر بن عاشور، فهذب وفصل هذا المبحث في كتابه مقاصد الشريعة، وجعل مقامات تصرفات النبي ﷺ اثني عشر مقاما: (التشريع، والفتوى، والقضاء، والإمارة، والهدي، والصلح، والإشارة على المستشير، والنصيحة، وتكميل النفوس، وتعليم الحقائق العالية، والتأديب، والتجرد عن الإرشاد). (٦)

الفائدة الثامنة

ترك الاستفصال في قضايا الأحوال مع ورود الاحتمال يُنزل منزلة العموم في المقال

هذه قاعدة أصولية مشهورة، نجد بعض تطبيقاتها في هذا الحديث. وتنسب هذه القاعدة إلى الإمام الشافعي رحمه الله تعالى، نسبها إليه الإمام الجويني في كتابه «البرهان في أصول الفقه» وسار على هذا من ذكرها وعمل بها من بعده من الأصوليين من مختلف المدارس الأصولية، مع اختلاف العبارات.

(٦) مجدي قويدر، إضاءات حول جهود العلماء في تصنيف التصرفات النبوي
https://sy-sic.com/?p=8555

وشاهدُها في هذا الحديث في ثلاثة مواضع:

* عموم الحكم فيمن جامع ناسيا أو متعمدا.
* عموم الحكم في الرجل السائل وامرأته.
* عموم الحكم في الجماع الواحد والمتكرر.

والشاهد أن النبي ﷺ، لم يسأل الرجل عن هذه التفاصيل مع ورود احتمالها، فدل ذلك على أن بيان الحكم المتعلق بالحادثة يشملها جميعها.

وبناءً على هذه القاعدة ذهب الحنابلة وبعض المالكية إلى أن الكفارة واجبة على من أفسد صومه في رمضان بالجماع سواءٌ أكان عامداً أم ناسياً، غير أنه لم يُسَلم لهم بذلك، لا من جهة القاعدة في إطلاقها، ولا من جهة انطباقها على هذا الموضع من الحديث، فبالرغم من تلقي الأصوليين لهذه القاعدة بالقبول، فإنهم جادلوا في تحقق شرطها من انتفاء الاستفصال، أوانتفاء علم النبي ﷺ بخصوص الحال، والتحقق من هذا محال في أغلب الأحوال، فلا سبيل حينئذ إلى الجزم بعموم المقال، وفي هذا يقول الإمام الغزالي - رحمه الله تعالى -: «فَإِنْ قِيلَ تَرْكُ الِاسْتِفْصَالِ مَعَ تَعَارُضِ الْأَحْوَالِ يَدُلُّ عَلَى عُمُومِ الْحُكْمِ، وَهَذَا مِنْ كَلَامِ الشَّافِعِيِّ قُلْنَا: مِنْ أَيْنَ تَحَقَّقَ ذَلِكَ؟ وَلَعَلَّهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَرَفَ خُصُوصَ الْحَالِ فَأَجَابَ بِنَاءً عَلَى مَعْرِفَتِهِ، وَلَمْ يَسْتَفْصِلْ، فَهَذَا تَقْرِيرُ عُمُومٍ

بِالْوَهْمِ الْمُجَرَّدِ.»[٧] . كما يُعترض على ادعاء العموم ضعف الاحتمال وهذا قادح في إعمال القاعدة، لأن كثيراً من الأصوليين اشترطوا قوة الاحتمال وظهور دواعيه، أما الشاذ أو المستبعد فلا يعتد به ولا تقرر به الأحكام، وقد تبين من سياق الحديث ولفظه أن احتمال الجماع ناسيا مستبعد، لما كان عليه حال الرجل من استعظام الذنب.

يقول الإمام القرافي: «إن مراد العلماء من تطرق الاحتمال، الاحتمال المساوي، أما المرجوح، فلا عبره به إجماعا؛ لأن الظواهر كلها فيها الاحتمال المرجوح، ولا يقدح في دلالتها». [٨]

ويقول ابن حجر العسقلاني في شرح الحديث «في حديث عائشة كما تقدم -احترقت -وفي رواية ابن أبي حفصة : -ما أراني إلا قد هلكت- واستدل به على أنه كان عامدا ؛ لأن الهلاك والاحتراق مجاز عن العصيان المؤدي إلى ذلك، فكأنه جعل المتوقع كالواقع، وبالغ فعبر عنه بلفظ: الماضي، وإذا تقرر ذلك فليس فيه حجة على وجوب الكفارة على الناسي وهو مشهور قول مالك والجمهور، وعن أحمد وبعض المالكية يجب على الناسي، وتمسكوا بترك استفساره عن جماعه هل كان عن عمد أو نسيان، وترك الاستفصال في الفعل ينزل منزلة العموم في

(٧) أبو حامد الغزالي، المستصفى، (ص ٢٣٦)
https://shamela.ws/book/5459

(٨) القرافي، نفائس الأصول في شرح المحصول(٤/ ٩٠٤)
https://shamela.ws/book/14280

القول كما اشتهر، والجواب أنه قد تبين حاله بقوله هلكت واحترقت فدل على أنه كان عامدا عارفا بالتحريم، وأيضا فدخول النسيان في الجماع في نهار رمضان في غاية البعد» (٩)

لذلك ذهب الجمهور إلى عدم وجوب الكفارة على من جامع أو أفطر ناسيا، ولهم في ذلك أدلة أخرى، كما أن في المسألة فروعاً ليس هذا محلها، لأن المقصد هو بيان مدى تعلق القاعدة الأصولية بقضية الحال.

الفائدة التاسعة

كفارة من جامع في رمضان وهو صائم

دل الحديث على أن من جامع من غير أهل الأعذار في رمضان وهو صائم، عامداً ذاكراً مختاراً عالماً بالتحريم، فعليه القضاء والكفارة: عتق رقبة، أو صيام شهرين متتابعين، أو إطعام ستينا مسكينا. وهذا القدر متفق عليه بين علماء الأمة. واختلفوا فيما دون ذلك من الترتيب، والفور، والنسيان والجهل، ومحل الكفارة، وخصالها، وسقوطها عند الإعسار المقارن للوجوب.

كما اختلفت المذاهب الفقهية في وجوب الكفارة بالإفطار عمدا بغير الجماع،

(٩) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب إذا جامع في رمضان ولم يكن له شيء فتصدق عليه فليكفر

كالأكل والشرب، فذهب الأحناف والمالكية إلى وجوب الكفارة على من أفطر بغير الجماع عامدا ذاكرا عالما مختارا، بينما ذهب الشافعية والحنابلة إلى عدم وجوبها بغير الجماع، مع تحقق الإثم ووجوب القضاء.

الفائدة العاشرة

في ضحكه وتبسمه ﷺ

قوله: (فضحك النبي - ﷺ - حتى بدت أنيابه) ساق البخاري الحديث بهذا اللفظ في كتاب الصوم، وفي كتاب الأدب، باب في التبسم والضحك، ساقه بلفظ: «حتى بدت نواجذه»، وفي سنن أبي داود: «حتى بدت ثناياه» ووجهها ابن حجر في الفتح بكونها تصحيفاً من أنيابه.

جاء في لسان العرب: ضَحِكَ يَضْحَك ضَحْكاً وضِحْكاً وضِحِكاً وضَحِكاً أَربع لُغَاتٍ...

والضَّاحِكَة: كُلُّ سِنّ مِنَ مُقَدَّمِ الأَضراس مِمَّا يَنْدُر عِنْدَ الضَّحِكِ. والضَّاحِكَة: السِّنُّ الَّتِي بَيْنَ الأَنياب والأَضراس، وَهِيَ أَربع ضَواحِكَ والضَّواحِكُ: الأَسنان الَّتِي تَظْهَرُ عِنْدَ التَّبَسُّمِ. والضَّحِكُ: ظُهُورُ الثَّنَايَا مِنَ الْفَرَحِ.(١٠)

وفي مراتب الضحك، يقول الإمام الثعالبي: «التَبَسُّمُ أَوَّلُ مَرَاتِبِ الضَحِكِ. ثُمَّ الإِهْلاسُ وهو إِخْفَاؤُهُ عَنِ الأَمَوِيّ. ثمَّ الافْتِرَارُ والانْكِلالُ وهما: الضَّحِكُ

(١٠) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر - بيروت (١٠/ ٤٥٩)

الحَسَنُ عَنْ أبي عُبَيْدٍ. ثُمَ الكَتْكَتَةُ أَشَدُّ مِنْهُمَا. ثُمَّ القَهْقَهَةُ. ثُمَّ القَرْقَرَةُ. ثُمَّ الكَرْكَرَةُ. ثُمَّ الاسْتِغْرَابُ. ثُم الطَّخْطخَةُ وهي أنْ يَقُولَ: طِيخ طِيخ. ثُمَّ الإِهْزَاقُ والزَّهْزَقَةُ وَهِيَ أَنْ يَذْهَبَ الضَّحِكُ بِهِ كلَّ مَذْهَبٍ عَنْ أبي زَيْدٍ وابن الأعرابيّ وغيرهما». (١١)

وفي ضحك النبي ﷺ في هذا الموقف بيانٌ لسعة صدره ورحمته بأصحابه، وأن ذلك كان فيه جبلةً وطبعاً، من غير تكلف ولا تصنع، كما أن فيه الحثَّ على البشاشة وطلاقة الوجه، وتوجيهً لأمته بالاعتدال في المزاج والتلطف في الحال ومخالقة الناس بخلق حسن، دون تنطع أو رهبانية مصطنعة، بل سن النبي ﷺ ذلك وجعله من الصدقة والمعروف، **فقال فيما رواه مسلم عن أبي ذر «لا تَحْقِرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلقٍ» وما رواه الترمذي وغيره عن أبي ذر أيضاً: «تبسمك في وجه أخيك لك صدقة»**. وفي هذا الهدي العملي والقولي، ردٌّ على ميولات شاذة لوصم هذا الدين بسمة الشدة والعبوس والتبتل المغشوش. «قال ابن عيينة: والبَشَاشَة مصيدة المودَّة، والبِرُّ شيء هيِّن، وجه طليق، وكلام ليِّن. وفيه رَدٌّ على العالم الذي يصَعِّر خدَّه للناس، كأنَّه معرض عنهم، وعلى العابد الذي يعبِّس وجهه ويقطِّب جبينه، كأنَّه منزَّهٌ عن النَّاس، مستقذر لهم، أو غضبان عليهم. قال الغزالي: ولا يعلم المسكين أنَّ الورع ليس في الجبهة حتى يُقَطَّب، ولا في الوجه حتى يُعَفَّر، ولا في الخدِّ حتى يُصَعَّر، ولا في

(١١) أبومنصور الثعالبي، كتاب فقه اللغة وسر العربية، ص٨٩، المكتبة الشاملة

الظَّهر حتى ينحني، ولا في الذَّيل حتى يُضَمَّ، إنَّما الورع في القلب» [١٢]

ويقول ابن بطال: «وهذا الباب يرد ما رُوي عن الحسن البصري أنه كان لا يضحك، وروى جعفر عن أسماء قالت: ما رأيت الحسن فى جماعة ولا فى أهله ولا وحده ضاحكاً قط إلا مبتسمًا. ولا أحد زهد كزهد النبي (ﷺ) وقد ثبت عنه أنه ضحك، وكان ابن سيرين يضحك ويحتج على الحسن ويقول: الله هو الذي أضحك وأبكى. وكان الصحابة يضحكون، وروى عبد الرواق، عن معمر، عن قتادة قال: سئل ابن عمر هل كان أصحاب النبى عليه السلام يضحكون؟ قال: نعم، والإيمان فى قلوبهم أعظم من الجبال. وفى رسول الله وأصحابه المهتدين الأسوة الحسنة. وأما المكروه من هذا الباب فهو الإكثار من الضحك كما قال لقمان لابنه: يابنى إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب فالإكثار منه وملازمته حتى يغلب على صاحبه، مذموم منهي عنه، وهو من فعل أهل السفه والبطالة» .[١٣]

ولم يرد ما يُعيّن سبب ضحكه ﷺ في هذا الحديث، والأرجح أن ذلك راجع إلى انقلاب حال الرجل من مستجير من الهلاك وداع على نفسه بالثبور، إلى راغب في الزاد، طامعٍ في الطعام، وهذا حال يثير الضحك عجباً لحال الانسان وسرعة تقلبه ونسيانه. وساق ابن حجر في الفتح احتمالات أخرى فقال: (قيل: إن سبب ضحكه - ﷺ - كان من تباين حال الرجل حيث جاء خائفا على نفسه

(١٢) https://dorar.net/akhlaq/ مدح-البشاشة-وطلاقة-الوجه-في-السنة-النبوية / ١٩٩
(١٣) ابن بطال شرح صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الضحك والتبسم (٩/ ٢٧٩)

راغبا في فدائها مهما أمكنه، فلما وجد الرخصة طمع في أن يأكل ما أعطيه من الكفارة، وقيل: ضحك من حال الرجل في مقاطع كلامه وحسن تأتيه وتلطفه في الخطاب وحسن توسله في توصله إلى مقصوده) .

وليس هذا بالموقف الوحيد الذي أثار ضحك النبي ﷺ، بل كتب السنة زاخرة بمظاهر رحابة صدره وانبساط وجهه وانفراج أساريره ﷺ.

وقد بوّب الإمام البخاري في صحيحه باباً في كتاب الأدب، سمّاه: (باب التبسم والضحك وقالت فاطمة عليها السلام أسر إلي النبي ﷺ فضحكت وقال ابن عباس إن الله هو أضحك وأبكى) أورد فيه تسعة أحاديث كلها متعلقة بالضحك والتبسم وثمانية منها خاصة بضحك النبي ﷺ وتبسمه، وفيها غُنْية عن مُطَوَّلات كتب السنن والسير، نسوقها باختصار، منها حديث عائشة رضي الله عنها – أن رفاعة القرظي طلق امرأته فبت طلاقها فتزوجها بعده عبد الرحمن بن الزبير فجاءت النبي ﷺ فقالت يا رسول الله إنها كانت عند رفاعة فطلقها آخر ثلاث تطليقات فتزوجها بعده عبد الرحمن بن الزبير وإنه والله ما معه يا رسول الله إلا مثل هذه الهدبة، لهدبة أخذتها من جلبابها، قال وأبو بكر جالس عند النبي ﷺ وابن سعيد بن العاص جالس بباب الحجرة ليؤذن له، فطفق خالد ينادي أبا بكر يا أبا بكر ألا تزجر هذه عما تجهر به عند رسول الله ﷺ وما يزيد رسول الله ﷺ على التبسم– وحديث سعد بن أبي وقاص: استأذن عمر بن الخطاب رضي الله عنه على رسول الله ﷺ وعنده

نسوة من قريش يسألنه ويستكثرنه عالية أصواتهن على صوته فلما استأذن عمر تبادرن الحجاب فأذن له النبي ﷺ فدخل والنبي ﷺ يضحك فقال أضحك الله سنك يا رسول الله بأبي أنت وأمي فقال عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي لما سمعن صوتك تبادرن الحجاب.. وحديث ابن عمر لما كان رسول الله ﷺ بالطائف وفيه: «فسكتوا فضحك رسول الله ﷺ».

وفيه أيضاً الحديث الذي نحن بصدده لكن باختلاف في اللفظ حيث ورد فيه «فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه»، وفي الباب أيضاً حديث أنس بن مالك قال «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذ بردائه جبذة شديدة قال أنس فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته ثم قال يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء».

وحديث جرير بن عبدالله قال: «ما حجبني النبي ﷺ منذ أسلمت ولا رآني إلا تبسم في وجهي ولقد شكوت إليه أني لا أثبت على الخيل فضرب بيده في صدري وقال اللهم ثبته واجعله هاديا مهديا» وحديث عائشة رضي الله عنها قالت «ما رأيت النبي ﷺ مستجمعا قط ضاحكا حتى أرى منه لهواته إنما كان يتبسم» ومن الباب أيضا حديث أنس في الاستسقاء وفي آخره: «ثم قام ذلك الرجل أو غيره والنبي ﷺ يخطب فقال غرقنا فادع ربك يحبسها عنا فضحك ثم قال اللهم حوالينا ولا علينا»(صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب في التبسم

والضحك، بتصرف)

ومما يثير الانتباه في هذه المواقف أن ظاهرها قد يكون مدعاةً لغضب وعقوبة، لما فيها من اعتداء أو تجاوز لأحكام شرعية أو مخالفة لآداب عامة وذوق حسن، كانتهاك حرمة رمضان، أو رفع الصوت على النبي ﷺ، أو التردد في تنفيذ أمره، أو التجاوز في الاستفصال فيما يجدر فيه الإجمال، أو حتى في الاعتداء اللفظي أو البدني، كما في حادثة الأعرابي الذي جبذ برداء النبي ﷺ جبذة شديدة أثرت على صفحة عاتقه ثم قال له يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، غير أن النبي ﷺ قابلها كلها بلين وضحك أو تبسم.

وقد كان لرسول الله ﷺ حالات بكى فيها، كما غضبَ ﷺ، بل اشتد غضبه، وهذا أمر طبيعي وجِبلة فطر الله الناس عليها، قال الله تعالى: ﴿**وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى**﴾ **(النجم ٤٢)** إذ لا يعدو كونه بشرا يطرأ عليه ما يطرأ على الناس أجمعين، ولكن الضابط في هذا الغضب أنه كان لانتهاك حد من حدود الله أو عدوان على إنسان أو مخالفة راجعة إلى سوء طوية أو انحراف نفسٍ ككِبر أو رياء. ومن ذلك غضبه لَّما بلغه خبر إطالة الصلاة (البخاري ٦١١٠) أو لِما رآه من عدم مراعاة نظافة المسجد (البخاري ٦١١١) أو المبالغة في تتبع مواضع التشدد (مسلم ٢٣٥٦ والبخاري ٦١١٣) أو الاعتداء على يهودي معاهد (البخاري ٣٤١٤)

وما كان رسول الله ﷺ يغضب لنفسه وما كان ينتصر لها، كما بينته الوقائع آنفة

الذكر، عن عائشة - رضي الله عنها- قالت: ما ضرَب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئًا قط بيده، ولا امرأة، ولا خادمًا، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نِيلَ منه شيء قط فينتقم من صاحبه، إلا أن يُنتَهَك شيءٌ من محارم الله، فينتقم لله - عز وجل». (صحيح مسلم ٢٣٢٨)

وعَودٌ إلى ضحك النبي ﷺ، فقد يعرض إشكال في تعارض حديث الباب وغيره من أحاديث هديه في الضحك مع قول عائشة رضي الله عنها كما في صحيح البخاري: «ما رأيت النبي (ﷺ) مستجمعًا قط ضاحكا حتى أرى منه لهواته إنما كان يبتسم». وقد ذهب جمهور العلماء إلى الجمع بين الروايات ودرء التعارض، بالقول إن نقلَت عائشة ما رأته وحسب، وذلك لا ينفي ما رآه الآخرون ورَوَوْه من زيادة في الهيئة أو الصفة. قال الإمام ابن بطال في شرح صحيح البخاري: «ليس هذا بخلاف لأن أبا هريرة شهد مالم تشهد عائشة، وأثبت ماليس فى خبرها، والمثبت أولى وذلك زيادة يجب الأخذ بها، وليس فى قول عائشة قطع منها أنه لم يضحك قط حتى تبدو لهواته فى وقت من الأوقات، وإنما أخبرت بما رأت كما أخبر أبو هريرة بما رأى، وذلك إخبار عن وقتين مختلفين». (١٤)

وهذا الجمع إن استقام تخريجه على روايات الأنياب والضواحك، ويصلح أن تُعالج به رواية عائشة، فإن الجمع بعيد في تسويغ روايات النواجذ الصحيحة، لأن النواذج لا تبدو إلا عند الاستغراق فى الضحك وظهور اللهوات، وهي

(١٤) ابن بطال شرح صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الضحك والتبسم (٩/ ٢٧٧)

اللحمة الحمراء المطبقة في أقصى سقف الفم، لذلك أوّلَ بعض أهل العلم روايات النواجذ وحملوها على المبالغة في الوصف أو التجوز في إطلاق النواجذ على الأنياب والضواحك. وهذا المسلك قوي في درء شبهة التعارض بين الروايات، ولا شك أن حمل روايات النواجذ على المبالغة أو المجاز أو التوسع اللغوي، أقوى وأليق من إجرائها مجرى تعدد الحالات مع إثبات الصفاة والهيئات الواردة عليها، فهذا مستبعد في حق النبي ﷺ، ويقوي هذا الرأي الأدلة التالية:

أولا: أن ارتباط الضحك بظهور الضواحك هو المعهود في لغة العرب، قال صاحب لسان العرب في مادة ضحك: الضحك ظُهُورُ الثَّنَايَا مِنَ الْفَرَحِ، وأن ظهور النواجذ يقترن عادة بصوت متردد، وهذا ما لم يرد، فدل أنه بعيد.

ثانياً: أن العرب قد تطلق على الأضراس كلها نواجذ، قال في لسان العرب: النواجذ: أقصى الأضراس، وهي أربعة في أقصى الأسنان بعد الأرحاء، وتسمى ضرس الحلم لأنه ينبت بعد البلوغ وكمال العقل، وقيل: النواجذ التي تلي الأنياب، وقيل: هي الأضراس كلها نواجذ.

ثالثاً: أنه قد شاع في الاستعمال، حتى صار من مضارب الأمثال، ذكر النواذج للتعبير عن المبالغة وإن لم تظهر حقيقةً في الضحك، قال ابن منظور: ويقال: ضحك حتى بدت نواجذه إذا استغرق فيه.

رابعاً: أن بعض روايات النواجذ وردت من طرق أخرى صحيحة بلفظ الأنياب كما هو في حديث الباب، فقد أورده البخاري في كتاب الصوم بلفظ الأنياب، وفي كتاب الأدب بلفظ النواجذ. وورد أيضا في سنن أبي داود بلفظ: حتى بدت ثناياه.

خامساً: أن الإنسان يكون عادة أكثر تبسطا وانشراحا في بيته بين أهله، بلا تكلف أو تحفظ، فلو كان من عادته ﷺ أن يضحك حتى تبدو نواجذه لكان ذلك بين أهله ولو لمرة واحدة، وبخاصة مع عائشة حيث كان يكثر تبسطه معها وإقامته عندها.

وضمن هذا السياق يقول الامام الزمخشري في تفسير سورة النمل: «ومعنى فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً تبسم شارعا في الضحك وآخذا فيه، يعنى أنه قد تجاوز حدّ التبسم إلى الضحك، وكذلك ضحك الأنبياء عليهم السلام. وأما ما روى أن رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه فالغرض المبالغة في وصف ما وجد منه من الضحك النبوي، وإلا فبدوّ النواجذ على الحقيقة إنما يكون عند الاستغراب» (والمقصود من قوله الاستغراب إحدى مراتب الضحك وهي التاسعة كما أورده الثعالبي).

كما رجح ابن بطال هذا الرأي في تأويل روايات النواجذ بعد أن ساق احتمالات أخرى، فقال في شرح صحيح البخاري، باب الضحك والتبسم ما نصه:

-ووجه تأويل هذه الآراء - والله أعلم - أنه كان عليه السلام فى أكثر أحواله يبتسم، وكان أيضًا يضحك فى أحوال أخرى ضحكا أعلى من التبسم، وأقل من الاستغراق الذى تبدو فيه اللهوات، هذا كان شأنه، وكان فى النادر عند إفراط تعجبه ربما ضحك حتى تبدو نواجذه، ويجرى على عادة البشر فى ذلك لأنه قد قال: (إنما أنا بشر) فيبين لأمته بضحكه الذى بدت فيه نواجذه أنه غير محرم على أمته، وبان بحديث عائشة أن التبسم والاقتصار فى الضحك هو الذى ينبغى لأمته فعله والاقتداء به فيه للزومه عليه السلام له فى أكثر أحواله. وفيه وجه آخر: من الناس من يسمى الأنياب الضواحك نواجذ واستشهد بقول لبيد: وإذا الأسنة أشرعت لنحورها أبرزن حد نواجذ الأنياب فتكون النواجذ الأنياب على معنى إضافة الشىء إلى نفسه، وذلك جائز إذا اختلف اللفظان كما يجوز عطف الشىء على نفسه إذا اختلف اللفظان، ومن إضافة الشىء إلى نفسه قوله تعالى: (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) (وحب الحصيد)، وقولهم: مسجد الجامع، وقال رؤبة: إذا استعبرت من جفون الأغماد، والجفون على الأغماد وإضافة الشىء إلى نفسه مذهب الكوفيين، وقد وجدنا أن النواجذ يعبر عنها بالأنيبا فى حديث الذى وقع على أهله فى رمضان وقع فى هذا الباب: (أن النبى عليه السلام ضحك حتى بدت نواجذه) ووقع فى كتاب الصيام فى هذا الحديث: (أنه ضحك حتى بدت أنيابه) فارتفع اللبس بذلك وزال الاختلاف

بين الأحاديث، وهذا الوجه أولى، والله أعلم..» [١٥]

وعلى كلِّ حال، فهو الكامل ﷺ في تبسمه وضحكه، وفي غضبه ورضاه، وفي فرحه وحزنه.

فهو الذي تم معناه وصورته ثم اصطفاه حبيباً بارئُ النسم

منزهٌ عن شريكٍ في محاسنه فجوهر الحسن فيه غير منقسم

الفائدة الحادية عشْرة

الهدي النبوي في التعامل مع التائبين والمستفتين

نحن هنا أمام درس عملي وأسلوب دعوي في كيفية التعامل مع المذنبين التائبين، ولا شك أنه نموذج فريد يجمع خصال الحكمة والعدل واللين في أجلى صورها الإنسانية وأبعادها الدعوية، ولا عجب في ذلك فهو -ﷺ- الشاهد المبشر النذير، والداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير. زكى ربُّه خُلُقه وهديه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم، ٤)، وقال أيضا في وصفه: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة، ١٢٨)، ولا نجد في القرآن الكريم وصف شخص النبي -ﷺ- فحسب، بل نجد فيه أيضا وصف معالم منهجه، وأصول دعوته، كما في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ

(١٥) ابن بطال، شرح صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الضحك والتبسم (٩/ ٢٧٧-٢٧٩)

فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران ١٤) وفي قوله تعالى: ﴿ادعُ إِلى سَبيلِ رَبِّكَ بِالحِكمَةِ وَالمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجادِلهُم بِالَّتي هِيَ أَحسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبيلِهِ وَهُوَ أَعلَمُ بِالمُهتَدينَ﴾ (النحل ٢٥)

وهذه بعض الآداب المستفادة من الحديث في التعامل مع التائبين والمستفتين:

١. القبول الحسن والتفرغ لهم وتقديمهم في تلبية حاجتهم والإجابة على أسئلتهم، فالرجل عرض مسألته بمجرد الدخول ولم يمهله الرسول ﷺ أو يؤجله: [إذ جاءه رجل فقال:..].

٢. الرحمة بهم واللين واللطف في معاملتهم، ففي رواية الأوزاعي: [ويحك ما صنعت] و «ويح» كلمة رحمة.

٣. الصبر عليهم إن بدا منهم جهل أو تعنت أو جفاء.

٤. الستر عليهم وتجنب فضحهم أو نشر أسرارهم.

٥. حسن الظن بهم وتصديقهم فيما يقولون دون تمحيص أو اتهام، فالرجل لم يزد على كلمة لا في أجوبته على أسئلة النبي ﷺ، ثم ادّعى أن ما في المدينة أهل بيت أفقر من أهل بيته، دون أدنى بيّنة، وقد صدقه النبي ﷺ في كل ذلك دون استفصال أو إنكار، رغم ما في الإجابات من وجوه الغرابة والجسارة.

٦. عدم اللوم والعتاب إذا بدت عليهم علامات التوبة والندم.

٧. إسقاط العقوبة أو التعزير.

٨. الاختصار وتجنب الإطالة أو التدقيق فيما ليس فيه حاجة أو فائدة.

٩. التبشير وبعث الأمل في النفوس.

١٠. التيسير وعدم التعسير في إيضاح الحلول وإيجاد مسالك التخلص من الحرام أو التكفير عن الذنب. [هل تجد .. هل تستطيع..فهل تجد ..؟]

١١. التمهل والتأني في معالجة القضايا وإيجاد الحلول: [فمكث النبي ﷺ].

١٢. توخي الدقة العلمية والوضوح المنهجي في بيان الأحكام الشرعية: [هل تجد.. هل تستطيع.. فهل تجد..؟]

١٣. تبَيُّنُ مواطن الرخص والاستثناء في معالجة الصعوبات التي تعترض التائبين: [خذها فتصدق به].

١٤. مساعدة التائبين ماديا وسد حاجتهم المعيشية لغلق أبواب العودة إلى المعصية: [قال: أطعمه أهلك].

١٥. تحبيب التائبين في الطاعة وتأليف قلوبهم بالبشاشة في وجوههم والتبسط معهم: [.. فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه..].

١٦. الدعم النفسي والتأطير الاجتماعي.

مختارات نبوية بين يدي رمضان

د: خالد حنفي

الأمين العام المساعد للمجس الأوروبي للإفتاء والبحوث

عضو مجلس أمناء المجلس الأوروبي للأئمة

الحديث الأول

أخوة محمد وعيسى عليهما السلام

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ] أخرجه البخاري.

المعنى العام للحديث

قوله صلى الله عليه وسلم أنا أولى الناس بعيسى: يعني أخص الناس به وأقربهم إليه؛ إذ لم يكن بين عيسى عليه السلام وبين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم نبى ولم يبعث بعد عيسى أحد سوى محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، كما بشر عيسى عليه السلام بنبينا صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

وقوله صلى الله عليه وسلم: الأنبياء إخوة لعلات: يعني أن الأنبياء إخوة لأب واحد وإن تعددت أمهاتهم فالأنبياء أصل دينهم واحد وهم جميعا دعوا إلى توحيد الله تعالى وإلى مكارم الأخلاق وفضائلها، فهم متفقون في أصول الدين وإن اختلفوا في فروعه وتفاصيله.

وقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم على تلك الصلة بينه وبين إخوانه من الأنبياء السابقين وأن شريعته متممة ومكملة ومصححة لشرائعهم في حديث **أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: إِنَّ [مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ] أخرجه البخاري ومسلم.** فالبيت الجميل بناه من سبقه من الأنبياء والمرسلين ولبناته هي الأحكام والشرائع التي جاؤوا بها، لكن تمام البنيان لم يكتمل إلا بنبوة وشريعة محمد صلى الله عليه وسلم وبنبوته اكتمل بنيان الدين أصولا وفروعا فلا نبي بعده ولا إضافة للبنيان من بعده إلى قيام الساعة.

وقد كان القرآن الكريم أكثر تفصيلا من السنة في تناول قصة المسيح عيسى بن مريم وأمه عليهما السلام، بل إن هذا التفصيل غير موجود حتى في كتب النصارى أنفسهم، بل لا يوجد كتاب على وجه الأرض منح السيد المسيح عليه السلام وأمه البتول وعائلته الكريمة تكريماً وتبجيلاً أعظم من القرآن الكريم، فقد أولى عناية منقطعة النظير لكل ما يتعلق بسيدنا عيسى عليه السلام، حتى سميت ثالثة سوره باسم آل عمران، وسورة أخرى من أعظم السور باسم والدته مريم عليها السلام، وسورة ثالثة عظيمة باسم «المائدة»، وهي التي طلبها حواريو عيسى عليه السلام، على حين أنه لا توجد سورة تحمل اسم

عائلة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، بني هاشم أو بني عبدالمطلب، أو سورة تحمل اسم أمه آمنة بنت وهب، وقد ورد اسم عيسى عليه السلام في القرآن خمساً وعشرين مرة، واسم أمه في القرآن أربعاً وثلاثين مرة.

وعندما يقرأ المسلم القرآن الكريم والسنة المطهرة يشعر بالسلام والتعاون مع أصحاب الأديان الأخرى، كما يشعر بالقرب والمحبة مع أتباع نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام، وعلينا كمسلمين أوروبيين أن ننشر ثقافة التعريف بعقيدتنا في نبي الله عيسى والتي يمكن إيجازها فيما يلي:

١. **الإيمان بأن عيسى عبد الله ورسوله واجب على كل مسلم: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]**

٢. **دعا موسى قومه إلى توحيد الله ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]** وأكد النبي صلى الله عليه وسلم على إخوته معه ومع سائر الأنبياء واشتراكهم جميعا في الدعوة إلى التوحيد فقال:»الأنبياء كلهم إخوة لعلَّات أمهاتهم شتى ودينهم واحد«

٣. **أكد القرآن الكريم على بشرية عيسى عليه السلام ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ**

كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] فهو عليه السلام لا يختلف عن أي إنسان إلا بأمرين هما:

أحدهما: أن الله تعالى خلقه دون أب، وإنما بنفخة من عند الله.

والثاني: أنه رسول الله، وكلمته وأنه أكرمه بمعجزات مادية عظيمة، وأن الله تعالى وصفه بصفات عظيمة، وذكر القرآن آيات كثيرة تدل على مخلوقية مريم وكذلك مخلوقية ولدها عيسى، وهذا يعني أنه لا هو ولا هي إله؛ لأن الخالق واجب الوجود أزلي قديم ليس قبله شيء. الغرابة في كونه وُلد دون أب ودون توفر الأسباب الطبيعية لخلقه، وهذا أمر يرجع لقدرة الله الذي إذا أراد شيئا قال له كن فيكون. والله القادر على الخلق من العدم كما خلق آدم، قادر على خلق إنسان بلا أب ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ الروم ٢٧

٤. الله ليس المسيح ولا ثالث ثلاثة ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا

يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾

٥. الله تعالى منزه عن الولد والشريك ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢]

رسائل الحديث

١. أخوة الأنبياء تقتضي أخوة الناس جميعا وتحابهم وتعاونهم وإن اختلفت أديانهم وألوانهم وأعراقهم.

٢. ختم الله الشرائع بشريعة الإسلام، والأنبياء بمحمد صلى الله عليه وسلم فهي الرسالة الكاملة التامة المكملة والمصححة لرسائل السابقين من الأنبياء، ولا يصح إيمان المؤمن إلا بإيمانه بالأنبياء السابقين دون تفريق بين أحد منهم.

٣. شرائع الأنبياء أصلها واحد وقد دعوا جميعا إلى التوحيد ومكارم الأخلاق وإن اختلفت في الفروع والتفاصيل، والاختلاف بين أتباع الأديان يجب أن يؤدي إلى التسامح والتعاون والتشارك لا التباغض والتدابر والتشاحن فضلا عن التحارب والتقاتل.

٤. إذا كان دين الأنبياء واحد رغم الاختلاف والنسخ الواقع في شرائعهم فإن دين الإسلام واحد ومصدره واحد والاختلافات الفقهية في الفروع التراثية

والمعاصرة لا يصح أبدا أن تتخذ ذريعة للعصبية أو الخلاف بين المسلمين.

٥. مساحة المشتركات بين المسلمين وغيرهم كثيرة جدا وواسعة جدا وهى الداخلة في قوله صلى الله عليه وسلم: دينهم واحد. وعلينا الالتقاء والعمل في هذه المساحات وعدم تركها للاختلافات الجوهرية الأخرى التي لن يسلم كل فريق للآخر برأيه فيها.

الحديث الثاني
سفينة المجتمع

عن النعمان بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: » مَثَلُ القَائِمِ على حُدُودِ اللهِّ والْوَاقِعِ فيها، كَمثل قَومٍ اسْتَهَموا على سَفِينَةٍ، فَأَصابَ بَعْضُهم أعْلاهَا، وبعضُهم أَسْفلَهَا، فكان الذين في أَسفلها إذا استَقَوْا من الماء مَرُّوا على مَنْ فَوقَهمْ، فقالوا: لو أنا خَرَقْنا في نَصِيبِنَا خَرقا ولَمْ نُؤذِ مَنْ فَوقَنا؟ فإن تَرَكُوهُمْ وما أَرَادوا هَلَكوا وهلكوا جَميعا، وإنْ أخذُوا على أيديهِمْ نَجَوْا ونَجَوْا جَميعا». أخرجه البخاري في صحيحه.

المعنى العام للحديث

هذا حديث عظيم يشبه فيه النبي صلى الله عليه وسلم المجتمع أو الدنيا كلها بسفينة، أقامت مجموعة من الناس في طابقها الأول، ومجموعة في طابقها الثاني بعد أن استهموا يعني: اتخذ كل واحِد منهم سَهْما، أَي: نصيبا من السَّفِينَة بِالْقُرْعَةِ، ثم وجدت المجموعة التي في الطابق الأرضي أنهم كلما أرادوا الماء اضطروا للمرور على من فوقهم فيؤذونهم، ففكرت تلك المجموعة لقربها من الماء أن تختصر الجهد والوقت ولا تزعج مجموعة الطابق الثاني في خرق السفينة

للحصول على الماء، ويوجه النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم إلى أن الواجب على الجميع في هذه الحالة هو: منع خرق السفينة؛ لأنها إن غرقت فسيغرق الجميع ولن يقتصر الهلاك على الذين قاموا بفعل الخرق دون غيرهم وهو ما عبر النبي صلى الله عليه وسلم عنه بقوله:» فإن تَرَكُوهُمْ وما أَرَادوا هَلَكوا وهلكوا جَميعا، وإنْ أخذُوا على أيديهِمْ نَجَوْا ونَجَوْا جَميعا» وما أكده القرآن الكريم من أن العقوبة لا تنزل فقط بمن ظلم بل بمن صمت على الظلم ولم ينكره حسب قدرته قال تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ **[الأنفال: ٢٥]**، وهكذا القائم على حدود الله والواقع فيها، أي المستقيم على كل شيء منع الله مجاوزته، أو الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، فالنبي صلى الله عليه وسلم يشبه من يرى المنكر ولا ينكره بحجة أن ضرره لا يصله بشكل مباشر، بمن يرى سفينة هو على ظهرها تخرق وستغرق ولا يتحرك لمنع خرقها لأن خارقها يتصرف في سهمه ويخرق في حقه، وكما أن النتيجة في مشهد السفينة ستكون هلاك الجميع فكذلك هلاك المجتمع إذا ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد جسد المسلمون الذين هاجروا إلى الحبشة نموذجا مثاليا في حراسة السفينة من الخرق والغرق رغم أنهم كانوا أقلية مستضعفة غريبة على المجتمع تخشى على نفسها من الهلاك بالترحيل والتسليم لقريش ليفتكوا بهم، فعندما قامت ثورة داخلية مسلحة ضد النجاشي ملك الحبشة العادل ذهب إليه جعفر بن أبي

طالب رضي الله عنه وعرض عليه أن يقاتلوا معه فرفض، فنفخوا قربة للزبير بن العوام ليعوم عليها ويراقب أجواء المعركة ليتدخل المسلمون بالإغاثة إذا لزم الأمر، وذكرت الروايات عن السيدة أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: فقمنا بالليل نصلي وندعو الله أن يظهر النجاشي على من خرج ينازعه في ملكه. ولما سلم الله سفينة مجتمع الحبشة من الخرق والغرق فرح الصحابة فرحا عظيما عبرت عنه السيدة أم سلمة رضي الله عنها بقولها: فما فرحنا فرحا قط بشيء منذ هاجرنا كفرحنا بظهور النجاشي على من خرج ينازعه في ملكه.

والحديث أصلٌ في الدور الإصلاحي للمسلم في أي مكان ينزل به وأن لا يكون همه أن يحفظ نفسه ولا يلتفت لغيره أو يصون جماعته المسلمة ولا ينظر إلى المجتمع أو الأمة، ولهذا شُغل إبراهيم عليه السلام بهذه المهمة الإصلاحية حين جاءته الملائكة تبشره بالولد الذي انتظره طويلا وجاءه على كِبر فجادل الملائكة في منح قوم لوط فرصة أخرى علهم يتوبوا إلى الله مما وقعوا فيه قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤] وقد جسد هذه المهمة الإصلاحية نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم حين سألته السيدة عائشة رضي الله عنها قائلة: يَا رَسولَ الله، هلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كانَ أَشَدَّ مِن يَومِ أُحُدٍ؟ فَقالَ: لقَدْ لَقِيتُ مِن قَوْمِكِ وَكانَ أَشَدَّ ما لَقِيتُ منهمْ يَومَ العَقَبَةِ، إذْ عَرَضْتُ نَفْسِي علَى ابْنِ عبدِ يَالِيلَ بنِ عبدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إلى ما أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ علَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إلَّا بقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ

رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي، فَقَالَ: إِنَّ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رُدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فيهم، قَالَ: فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللهَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عليهمُ الأَخْشَبَيْنِ، فَقَالَ له رَسولُ الله صَلَّى اللهَّ عليه وَسَلَّمَ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهَّ مِن أَصْلَابِهِمْ مَن يَعْبُدُ اللهَّ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ به شيئًا. أخرجه مسلم في صحيحه.

وما أكثر خُرَّاق السفينة اليوم الذين يفسدون في الأرض وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، بل وما أكثر من يتابعون بصمت ويرون بأعينهم السفينة التي تحملهم تغرق ولا ينكرون خرقها بكلمة. والأخذ على يد من يخرق السفينة لابد أن يتم بحكمة وفقه وفي إطار القانون والنظام العام وإلا أدى إلى فساد أكبر.

رسائل الحديث

١. **استحقاق العقوبة العامة بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**: الصورة البيانية التي رسمها هذا الحديث النبوي الشريف توضح أن العقوبة الإلهية أو السننية الأرضية حين تصيب الناس لا تقتصر على المفسدين وحدهم ولكنها تنزل بالجميع ومن بينهم الصالحين الذين لا يتورطون في خرق السفينة لكنهم لم ينكروا الخرق ولم يتحركوا لإيقافه؛ وذلك لبيان خطر الصمت على الخطأ

وتحميل المسؤولية العامة للمجتمع كله عن حماية النظام العام وقيم المجتمع، وعلى المسلمين في الغرب أن يقوموا بواجبهم في حراسة القيم العامة الأصيلة في الإسلام وسائر الأديان إذا وقع التغول والعدوان عليها، كالحرية والعدل والمساواة والشورى والديمقراطية، وأن تكون حركتهم لحماية القيم حركة مبدئية يدفعهم إليها الإيمان بها لا المصلحة المحدودة المتعلقة بالمسلمين فيثورون ويحتجون فقط إذا كان غرقى السفينة من المسلمين، أو كان القانون الجديد يضر بالحريات الدينية للمسلمين، بل عليهم أن يرفضوا كل توجه يتفق العقلاء على أنه خرق للسفينة؛ لأنه حتما سيصلهم شرره ولو بعد حين.

٢. **امتناع بعض المسلمين عن المشاركة السياسية خرقٌ للسفينة**: تعتبر المشاركة السياسية في عالم اليوم هي أحد أهم الوسائل الحديثة في العالم المتحضر للتغيير وحفظ قيم المجتمع وحرياته العامة، وبعض المسلمين يشكك في مشروعية تلك المشاركة بل يبلغ به الحد إلى تحريمها، والواقع يحتمها ويفرضها؛ لأنها السبيل الأمثل لمنع القوانين المقيدة للحريات، ومنع وصول الأحزاب الشعبوية المتطرفة التي تخرق سفينة المجتمع بخطابها وتوجهها وتطرفها، فهي أفضل وسيلة سلمية آمنة للتغيير والوقاية والإيجابية.

٣. **خرق سفينة الأسرة**: ارتفعت نسب الطلاق بشكل مخيف في عالم اليوم، والإشكال الأكبر هو أن أسباب هدم الأسرة في أغلب الحالات يمكن الصبر عليها وتجاوزها بشيء من الحكمة والتغافل والنظر إلى الإيجابيات الأخرى

في كل من الزوج والزوجة، إن هدم الأسرة بالطلاق هو خرق لسفينة الأسرة وخطوة في هدم سفينة المجتمع، فيجب أن لا يصار إليه إلا إذا تعين سبيلا لحماية سفينة الأسرة بإعادة بنائها أو استبدالها بأفضل منها، وعلى الزوجين وعائلتها والمؤسسة الدعوية في الغرب بذل الجهد لحماية سفينة الأسرة وصيانتها بالتأهيل قبل الزواج وحسن المتابعة بعده؛ فإن التحديات التي تواجها الأجيال الجديدة في الغرب لابد لها من أسرة متعاونة متماسكة، وأكثر من يدفع ثمن الطلاق والشقاق في الغرق هم الأولاد.

٤. **تقديم المصلحة العامة على الخاصة**: فإن أهل الطابق الأرضي القريبون من الماء أصحاب مصلحة في خرق السفينة للحصول على الماء وتوفير الوقت والجهد لكنهم إن فعلوا أضروا بالمصلحة العامة للمجتمع بإغراق السفينة كلها؛ ولهذا فعلى المسلمين في الغرب أن يقدموا دائما مصلحة المجتمع والأمة الأوربية على مصالحهم الخاصة الجزئية حالة التعارض، فإذا كنا مثلا أمام حزبين سياسيين متنافسين: أحدهما برنامجه يحمي المصالح العامة كالبيئة لكنه يضيق على حريات المسلمين الدينية، والثاني يحقق ببرنامجه مصلحة للمسلمين لكنه يضر بالشأن العام فيجب دعم الأول على الثاني؛ لأن دعمه يمثل حماية السفينة من الغرق.

٥. **فقه « أخذوا على أيديهم»**: إنكار المنكر والتصدي لمحاولة خرق السفينة يحتاج إلى فقه وحكمة؛ لأن منع الخرق بغير فقه ودون حكمة ربما أدى إلى منكر أعظم أو اتساع الخروق في السفينة، لهذا تدرج النبي صلى الله عليه وسلم في

إنكار المنكر ومنع خرق سفينة المجتمع ووضع جملة من الخيارات كالإنكار اللساني والقلبي والإنكار باليد، وربما كان الاكتفاء باللسان هو عين الحكمة، ومنع الخرق باليد يحتاج أعلى درجات الفقه، وفي حالة العجز التام ليس أقل من الإنكار اللساني ليبقى المسلم متحفزا رافضا لخرق سفينة المجتمع فمتى سنحت الفرصة للمنع بغير القلب انتقل إليه. وفقه منع الخرق يؤكد على رفض العنف بكل صوره وأشكاله سبيلا إليه في دولة القانون والمؤسسات.

٦. **جواز القرعة وضرب المثل**: فالنبي صلى الله عليه وسلم لم ينكر استهامهم واقتراعهم لوصول كل فريق إلى قسمه ونصيبه في السفينة، فيجوز استعمال القرعة في مختلف مجالات الحياة، كما يفيد الحديث أهمية ضرب المثل في التوجيه والتعليم.

الحديث الثالث

حرمة دم ومال المعاهد غير المسلم

عَنْ عَبْدِ اللهِّ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا» البخاري.

المعنى العام للحديث

المعاهد هو غير المسلم إذا دخل دار الإسلام بأمان أو عهد أو هدنة إذا كانت هناك حرب، ويحرم على المسلم بهذا العهد أن يتعرض لغير المسلم بأي لون من ألوان الأذى فضلا عن قتله أو أخذ ماله، فإن فعل شيئا من ذلك فحرام عليه أن يشم رائحة الجنة فضلا عن أن يدخلها، وأوضح وأصرح من هذا الحديث ما **روي عن عَمْرُو بْنِ الْحَمِقِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا أَمِنَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ عَلَى نَفْسِهِ ثُمَّ قَتَلَهُ فَأَنَا بَرِيءٌ مِنَ الْقَاتِلِ وَإِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ كَافِرًا» أبو داود.** فالنبي صلى الله عليه وسلم يعلن براءته من مسلم يقتل كافراً بعد أن أعطاه الأمان على نفسه. والحكم ينطبق بصورة أشد على المسلمين في أوروبا وعلى كل مسلم دخل أوروبا بتأشيرة مؤقتة للسياحة أو العلاج أو الدراسة أو غير ذلك، أو تأشيرة دائمة، والمسلمون المتجنسون أولى أيضا بهذا

الحكم والتشديد عليهم فيه، فكل مسلم يقيم في أوربا دخلها بعقد وعهد بينه وبين الدولة بموجب التأشيرة التي مُنحها يجب عليه أن يلتزم بقوانينها وأن يحترم نظامها وأن يؤمن أهلها وأن لا يتعرض لهم بأذى أو قتل، بل يتعين على المسلمين كمواطنين أوربيين الدفاع عن أوطانهم الأوروبية أمام أى اعتداء يقع عليها أو على أهلها، وهذا الحديث يبطل ويجرم عمليات القتل والدهس التي وقعت في أوروبا ونسبها البعض زوراً للإسلام، ففاعلها ناقض للعهد لا يجد ريح الجنة ولا يدخلها. وكذلك ما يردده البعض من استحلال لأموال غير المسلمين وسرقتها، وكل صور أخذ مال من الدولة دون حق للمسلم فيه بالغش أو الكذب أو التدليس أو ادعاء غير الحقيقة كل ذلك حرامٌ شرعاً على المسلم أن يقع فيه.

وقد أمرنا الله عزو وجل بالوفاء بالعهود والمواثيق بيننا وبين المسلمين وغير المسلمين فقال: ﴿**وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا**﴾ **[الإسراء: ٣٤]**، وقوله: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ**﴾ **[المائدة: ١]** ومن صفات أولي الألباب أنهم يوفون بالعهود قال تعالى: ﴿**أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ**﴾ **[الرعد: ١٩، ٢٠]** وتوعد الله ناقض العهد بقوله: ﴿**وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**﴾ **[الرعد: ٢٥]**

ومما يؤسف له أن بعض المسلمين يريد نقض العهد بينه وبين غير المسلمين بحجة أن أوروبا تشارك بجيوشها وأموالها في قتال المسلمين في مناطق متفرقة من العالم، أو باستدعاء أحداث تاريخية سبقت كاحتلال فرنسا للجزائر وقتلها من المسلمين في الجزائر ما قتلت واعتبار ذلك مسوغاً يبيح الاعتداء على الفرنسيين اليوم، وهذا الفهم منقوض ومرفوض بهذا الحديث وبقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤] فما ذنب الأنفس البريئة المطمئنة اليوم لنحملها أوزار أمم سبقت بالترويع أو التهديد أو القتل؟

رسائل الحديث

١. خطر الدماء وصيانة الأنفس والعهود في الإسلام دون تفريق بين مسلم وغير مسلم ما لم يكن محارباً، ومن خطرها أن المستهين بها لا يشم ريح الجنة.

٢. دماء وأموال وأعراض غير المسلمين في الغرب مصونة بموجب العهد المتمثل في تأشيرة دخول البلاد أو التجنس بجنسيتها، والمعتدي عليهم لا يدخل الجنة ولا يشم ريحها بمنطوق الحديث النبوي الصحيح.

٣. الوفاء بالعهد مع غير المسلمين واجب ونقضه حرام وصورته في أوروبا، أن المسلم الأوروبي أعطى الدولة عهدا بالتزام قوانينها وتأمين أهلها فلا يجوز له نقض عهده تحت أي ذريعة.

٤. تأمين أوروبا وأهلها والدفاع عنها ضد أي عدوان واجب على كل مسلم اتخذها وطنا له ينعم بأمنها وخيرها.

٥. تبرير العنف في الغرب بأحداث تاريخية سبقت لا يصح عقلا ولا شرعا ويتعارض مع المبدأ القرآني: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء: ١٥]

٦. وصية النبي صلى الله عليه وسلم بالمعاهدين والمستأمنين وحرصه على تأمينهم وعدم إخافتهم يدل على كمال رأفته ورحمته بالخلق مسلمهم وكافرهم؛ لعموم رحمته وعالمية رسالته قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]

الحديث الرابع

فقه التعامل مع الإساءة للمقدس

عن أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَى الْإِسْلَامِ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فَدَعَوْتُهَا يَوْمًا فَأَسْمَعَتْنِي فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَكْرَهُ فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا أَبْكِي قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَى الْإِسْلَامِ فَتَأْبَى عَلَيَّ فَدَعَوْتُهَا الْيَوْمَ فَأَسْمَعَتْنِي فِيكَ مَا أَكْرَهُ فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ فَخَرَجْتُ مُسْتَبْشِرًا بِدَعْوَةِ نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا جِئْتُ فَصِرْتُ إِلَى الْبَابِ فَإِذَا هُوَ مُجَافٌ فَسَمِعَتْ أُمِّي خَشْفَ قَدَمَيَّ فَقَالَتْ مَكَانَكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ وَسَمِعْتُ خَضْخَضَةَ الْمَاءِ قَالَ فَاغْتَسَلَتْ وَلَبِسَتْ دِرْعَهَا وَعَجِلَتْ عَنْ خِمَارِهَا فَفَتَحَتْ الْبَابَ ثُمَّ قَالَتْ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ قَالَ فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَيْتُهُ وَأَنَا أَبْكِي مِنْ الْفَرَحِ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَبْشِرْ قَدْ اسْتَجَابَ اللهُ دَعْوَتَكَ وَهَدَى أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ خَيْرًا قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُحَبِّبَنِي أَنَا وَأُمِّي إِلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَيُحَبِّبَهُمْ إِلَيْنَا قَالَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّهُمَّ حَبِّبْ عُبَيْدَكَ هَذَا يَعْنِي أَبَا هُرَيْرَةَ وَأُمَّهُ إِلَى عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ وَحَبِّبْ

إِلَيْهِمْ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا خُلِقَ مُؤْمِنٌ يَسْمَعُ بِي وَلَا يَرَانِي إِلَّا أَحَبَّنِي. صحيح مسلم

مفردات الحديث

فَخَرَجْتُ مُسْتَبْشِرًا: مَسْرُورًا مُنْشَرِحًا.

مُجَافٍ: أَيْ مَرْدُودٌ.

خَشْفَ قَدَمَيَّ: صَوْتَهُمَا، وَقِيلَ: حَرَكَتَهُمَا وَحِسَّهُمَا

خَضْخَضَةَ الْمَاءِ: أَيْ تَحْرِيكَهُ، وَقِيلَ: صَوْتُهُ

لَبِسَتْ دِرْعَهَا: أَيْ قَمِيصَهَا

وَعَجِلَتْ عَنْ خِمَارِهَا أَيْ: تَرَكَتْ خِمَارَهَا مِنَ الْعَجَلَةِ

المعنى العام للحديث

هذا الحديث أصل في فقه الدعوة إلى الله والتعريف بالإسلام وأفضل السبل للتعامل مع الإساءة للمقدس، والمسلمون في الغرب اليوم هم أحوج الناس إلى مدارسة هذا الحديث والعمل بفقهه ورسائله؛ لكثرة وتعدد صورة الإساءة لمقدساتهم ونبيهم، فسيدنا أبو هريرة رضي الله عنه توجه بدعوة أمه إلى الإسلام فأسمعته في رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يكره لعلمها بحبه له فكان يبكي لفعل أمه وفرط حبه لنبيه، فلم يرد على إساءتها بإساءة وإنما طلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو لها فدعا لها فأجاب الله دعاءه، وأسلمت فور

دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لها فطلب أبو هريرة من النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو له ولأمه أن يحببهم في عباده الصالحين فدعا له فما سمع به مسلم إلا وأحبه.

والحديث أصلٌ في عدم جواز الاعتداء على ساب النبي صلى الله عليه وسلم أو قتله؛ إذ لو صح لأمر النبي أبا هريرة به أو لفعله أبو هريرة ابتداءً، وأصرح في الدلالة عليه حديث سلمة بن الأكوع قال: فَلَمَّا اصْطَلَحْنَا نَحْنُ وَأَهْلُ مَكَّةَ، وَاخْتَلَطَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ، أَتَيْتُ شَجَرَةً فَكَسَحْتُ شَوْكَهَا فَاضْطَجَعْتُ فِي أَصْلِهَا، قَالَ: فَأَتَانِي أَرْبَعَةٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، فَجَعَلُوا يَقَعُونَ فِي رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَبْغَضْتُهُمْ، فَتَحَوَّلْتُ إِلَى شَجَرَةٍ أُخْرَى، وَعَلَّقُوا سِلَاحَهُمْ وَاضْطَجَعُوا، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ نَادَى مُنَادٍ مِنْ أَسْفَلِ الْوَادِي، يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، قُتِلَ ابْنُ زُنَيْمٍ، قَالَ: فَاخْتَرَطْتُ سَيْفِي، ثُمَّ شَدَدْتُ عَلَى أُولَئِكَ الْأَرْبَعَةِ وَهُمْ رُقُودٌ، فَأَخَذْتُ سِلَاحَهُمْ، فَجَعَلْتُهُ ضِغْثًا فِي يَدِي، قَالَ: ثُمَّ قُلْتُ، وَالَّذِي كَرَّمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ، لَا يَرْفَعُ أَحَدٌ مِنْكُمْ رَأْسَهُ إِلَّا ضَرَبْتُ الَّذِي فِيهِ عَيْنَاهُ، قَالَ: ثُمَّ جِئْتُ بِهِمْ أَسُوقُهُمْ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: وَجَاءَ عَمِّي عَامِرٌ بِرَجُلٍ مِنَ الْعَبَلَاتِ، يُقَالُ لَهُ: مِكْرَزٌ يَقُودُهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى فَرَسٍ، مُجَفَّفٍ فِي سَبْعِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «**دَعُوهُمْ، يَكُنْ لَهُمْ بَدْءُ الْفُجُورِ، وَثِنَاهُ**»، **فَعَفَا عَنْهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم**

بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤] الْآيَةَ كُلَّهَا. صحيح مسلم (٣/ ١٤٣٤)

فلو كانت عقوبة ساب النبي صلى الله عليه وسلم هي القتل لقتلهم سلمة ولم يذهب بهم للنبي صلى الله عليه وسلم، ولما عفا النبي صلى الله عليه وسلم عنهم؛ لأن الحد لا يسقط إذا بلغ الحاكم لقوله صلى الله عليه وسلم: «تَعافُوا الحُدُودَ فِيما بَينكمْ، فمَا بَلغَنِى من حَدٍ فقدْ وجَبَ»

رسائل الحديث

١. أولى الناس بالدعوة إلى الإسلام والحرص على هدايتهم هم الأقربون وفي مقدمتهم الأم؛ لذا حرص أبو هريرة على دعوة أمه وتحبيبها في الإسلام.

٢. وجوب استمرار الأبناء في البر بوالديهم بعد إسلامهم وإن بقوا على الكفر، فأبو هريرة لم ينقطع عن أمه بعد إسلامه ولم يعاديها رغم سبِّها لأحب الناس إليه.

٣. للدعاء أبلغ الأثر في الهداية وتقليب القلوب على ما يحبه الله، فلنكثر من الدعاء لأولادنا ليثبتوا على الإسلام، ولنكثر من الدعاء لمن ندعوهم للإسلام من غير المسلمين.

٤. مشروعية طلب الدعاء من الصالحين فلم يكتف أبو هريرة بدعائه هو وإنما

طلب الدعاء من النبي صلى الله عليه وسلم.

٥. من فقه التعامل مع الإساءة للمقدس تجاهل الإساءة ومقابلتها بالإحسان ورجاء الهداية للمسيء، وعدم توسيع نشر وإذاعة إساءته فلعله يهتدي يوما ما؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ [المزمل: ١٠]

٦. من فقه التعامل مع الإساءة للمقدس عدم سب أو إيذاء أو قتل المسيء، فلم يفعل شيئا من ذلك أبو هريرة وقد أقره النبي صلى الله عليه وسلم على فعله واستجاب لطلبه داعياً لأمه.

٧. على المسلمين في الغرب أن يتحلوا بأعلى درجات الرفق والحكمة والرحمة بمن يتعرض لمقدساتهم بالإساءة وأن يأخذوا على أيدي إخوانهم من المسلمين حول العالم في توجيه وترشيد غضبهم وغيرتهم لنبيهم إذا أسيء إليه ودراسة أي سلوك أو توجه في الرد على الإساءة حتى لا تأتي بعكس مرادهم.

٨. لا تستبعد الهداية والاستقامة على أحد مهما اشتدت عداوته للإسلام ونبيه فقد يصبح الرجل كافراً ويمسي مؤمنا، فبين إسلام أم أبي هريرة وكفرها لحظات ودعوات، وقد رأينا هذا في عدد من المسيئين للنبي صلى الله عليه وسلم بالرسم كيف اهتدوا وأسلموا وحسن إسلامهم وبكوا حبا وندما على

ما كان منهم تجاه نبيهم قبل إسلامهم.

٩. اغتسال أم أبي هريرة قبل إسلامها لا يدل على وجوب الاغتسال للكافر قبل إسلامه كما هو رأى الجمهور، والذي نرجحه أن يسلم الكافر مباشرة دون غسل وأنه مستحب لا واجب كما هو رأي أبي حنيفة، وهو الأنسب للتيسير على الداخل في الإسلام ولقوله تعالى: ﴿**قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ**﴾ **[الأنفال: ٣٨]**

١٠. فضل أبي هريرة رضي الله عنه ومكانته في قلوب المسلمين، فقد استجاب الله دعوة نبيه صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة وأمه، فأحبه كل من سمع به، وهو صاحب فضل في نقل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلينا، وقد قيَّض الله له من يدافع عنه ضد أي افتراء عليه بتصنيف المصنفات والكتب.

الحديث الخامس
أعلى الناس رتبة في الخير

عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي. الترمذي وابن ماجة بسند صحيح

المعنى العام:

في هذا الحديث الشريف البليغ واسع المعنى على قلة كلماته ووجازة ألفاظه يعلمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن معيار الخيرية وميزان التفاضل بين الناس وأعلى الناس رتبة في الخير هو: من يقتدي بالنبي صلى الله عليه وسلم في معاملته لزوجه، والعكس كذلك أن شر الناس هو سيء الخلق والمعاملة مع زوجه وأهله، وكثير من الناس اليوم يكون في أعلى درجات حسن الخلق مع الناس خارج البيت فيكرمهم ويؤثرهم على نفسه ويمازحهم ويلاطفهم ويطيل الحوار والاستماع إليهم ولكنه لا يفعل عشر ذلك مع زوجه فتراه في البيت عبوسا متجهما يقتر على زوجه في النفقة قليل الحديث والتحاور معها، لا يحسن إلى أهلها كما تحسن إلى أهله، لا يحسن عشرتها في الجملة. ويلاحظ في الحديث الشريف أن النبي صلى الله عليه وسلم عبر عن الزوجة بالأهل يعني

أن الزوجة من أهل الزوج الذين هم أقرب الناس إليه والتعبير يوحي بالقرب العاطفي والنفسي بين الزوجين والذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، وعليه فمن أراد التحقق بالخيرية وأن يكون من أعلى الناس رتبة في الخير فليكن في علاقته بزوجه كعلاقة النبي صلى الله عليه وسلم بزوجاته ومن أهم مظاهر تلك العلاقة: عدم الإيذاء أو الضرب؛ فلم يثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم ضرب زوجة من زوجاته ولو مرة في حياته كلها بل ثبت عنه النهي عن الضرب فقال: «لَا تَضْرِبُوا إِمَاءَ اللَّهِ» سنن أبي داود (٢/ ٢٤٥)، كان في خدمة أهله صلى الله عليه وسلم فعَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ عَائِشَةَ: هَلْ كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ شَيْئًا؟ قَالَتْ: نَعَمْ، « كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَخِيطُ ثَوْبَهُ، وَيَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ كَمَا يَعْمَلُ أَحَدُكُمْ فِي بَيْتِهِ مسند أحمد ط الرسالة (٤٢/ ٢٠٩) ولنا أن نتخيل أن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم مع كثرة أعبائه ومسؤولياته وأعدائه وتحدياته الداخلية والخارجية يجد وقتا ليكون في خدمة أهله لا يقطعه عنه إلا الصلاة، وهو رد عملي على من يعتبر وظيفة المرأة الكبرى القيام بشؤون البيت والزوج لا يساعدها فيها.

ومنها: وفاؤه لزوجته بعد موتها وتصريحه بحبها فعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: مَا غِرْتُ

عَلَى نِسَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَّا عَلَى خَدِيجَةَ وَإِنِّي لَمْ أُدْرِكْهَا، قَالَتْ: وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا ذَبَحَ الشَّاةَ، فَيَقُولُ: «أَرْسِلُوا بِهَا إِلَى أَصْدِقَاءِ خَدِيجَةَ» قَالَتْ: فَأَغْضَبْتُهُ يَوْمًا، فَقُلْتُ: خَدِيجَةَ فَقَالَ: رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «إِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا» صحيح مسلم (٤/ ١٨٨٨)

ومنها: حواره مع زوجاته وسماعه لهن: كما في حديث أم زرع الطويل، ومنها: الترويح عنها بصور وأشكال الترويح المتاحة في عصره، فكان يسابق السيدة عائشة رضي الله عنها فيسبقها وتسبقه، وكان يأخذها إلى التلاع أي أماكن الخضرة والطبيعة، ومنها مشاورته لزوجته في أعقد الأمور وأصعبها كمشاورته للسيدة أم سلمة رضي الله عنها في التحلل من الإحرام بالعمرة، وغير ذلك من صور حسن العشرة من النبي صلى الله عليه وسلم مع زوجاته فمن أراد أن يكون خير الناس وأفضلهم عند الله فليكن كالنبي صلى الله عليه وسلم في حسن معاملته لأهله.

رسائل الحديث:

١. ميزان الخيرية ومعيار التفاضل هو بمقدار حسن خلق الرجل مع زوجه وإحسانه إليها كما أحسن النبي صلى الله عليه وسلم.

٢. شر الناس من يحسن لغير أهله ولا ترى زوجه منه إلا كل عيب ونقيصة.

٣. الزوجة منزلتها من الزوجة بمنزلة أهله وعائلته في وجوب الإحسان إليها

والبر بها وإكرامها في حياتها وبعد موتها.

٤. الميزان الذي نزن بها سلوكنا ومعاملاتنا مع زوجاتنا هو الميزان النبوي لا الأعراف والعادات والتقاليد التي تهين الزوجة أو تنتقص من كرامتها.

٥. الزوج الصالح يتقرب إلى الله بحسن خلقه واقتدائه بالنبي صلى الله عليه وسلم في معاملته لأهله.

٦. على الزوجة كذلك أن تبادل إحسان زوجها إليها بإحسان مثله وأكبر منه، وأن تكون في حسن عشرتها وتبعلها كما كانت زوجات النبي صلى الله عليه وسلم.

الحديث السادس
فضل العبادة في وقت الغفلة

عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ» أخرجه مسلم.

المعنى العام للحديث

هذا الحديث يبين فضل الثبات على الدين في زمن غربته وقلة المتمسكين به، وعِظم الأجر والثواب على ملازمة الطاعات في أوقات الغفلة، فالهرج هو الفتن واختلاط الناس وكثرة الكذب وانتشار ترك الطاعات، فمن عبد الله واستمسك بدينه في هذه الأوقات كان كمن هاجر مع النبي صلى الله عليه وسلم من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة وثواب الهجرة عظيم كبير كما في قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، والعلاقة بين العابد في زمن الغفلة والمهاجر في سبيل الله من وجوه: أن المهاجرين كانوا قلة وكذا العباد في أوقات الفتن والغفلات قلة، ومنها: أن المهاجر يقاوم رغبته في البقاء في

وطنه مع أهله وماله ويضحي بتركها لله، وكذا العابد في وقت الغفلة يقاوم رغبته وشهوته في أن يسير مع الناس فيما يفعلون من ترك للطاعات واقتراف للمحرمات فكلاهما فرَّ بدينه من الناس، ومنها: أن الهجرة ومفارقة الأوطان في سبيل الله دليل على حياة القلب وارتفاع منسوب الإيمان، تأمل موقف صهيب الرومي رضي الله عنه حين ترك كل ما يملك ليلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم وبشره النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم بقوله: ربح البيع أبا يحيى ربح البيع. فقلب صهيب الحي التارك للدنيا وراء ظهره هو قلب العابد التارك للشهوات في أوقات الغفلات والفتن.

وهذا الحديث يتنزل على كل مسلم أو جماعة مسلمة تواجه تحديات للالتزام بدينها وتقدم تضحيات للثبات عليه وإعانة الناس على حفظ دينها، كالمسلمين في الغرب حيث يواجهون تحديات وصعوبات في الالتزام بدينهم والبقاء عليه تختلف كثيرا عن غيرهم ممن يعيشون في بلدان أكثريتها مسلمة ونظمها وقوانينها تتوافق مع تعاليم الإسلام، وهو المعنى الذي أشار إليه النبي الكريم صلى الله عليه وسلم حين قال لمهاجري الحبشة: « ولكم أنتم أصحاب السفينة هجرتان» وذلك جوابا عن سؤال من أسماء بنت عميس رضي الله عنها وهي إحدى المهاجرات للحبشة حيث عارضها عمر بن الخطاب قائلا لها: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم منكم؟ وإنما ضاعف النبي صلى الله عليه وسلم الأجر لمهاجري الحبشة عن المهاجرين معه إلى المدينة؛ لأن

جهادهم للثبات على الدين مع أولادهم أعظم ممن هاجروا معه.

وتظهر قيمة العبادة في وقت الغفلة في مواسم الغفلات والفتن في الغرب كاحتفالات رأس السنة وغيرها، وحين يجد الشاب أو الفتاة نفسه أمام طوفان من المغريات والفتن فيعتصم بالله ويذهب إلى محرابه ومصحفه.

رسائل الحديث

١. الثبات على الدين في زمن غربته والتشكيك في قطعياته وثوابته أجره يعدل أجر المهاجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٢. بلوغ رتبة العبَّاد في أوقات وأزمنة الفتن والغفلة يكون بتعهد القلب وتزكية النفس في أوقات الرخاء ولزوم الأوراد العبادية من ذكر وتلاوة للقرآن وصيام وقيام نفلا وفرضا.

٣. الصلاح عند فساد الناس وإصلاح ما أفسد الناس والأخذ بيد الناس للثبات على الدين مما يبلغ به المرء درجة المهاجر إلى الله ورسوله.

٤. قبل النظر إلى كثرة الفتن والتحديات علينا أن ننظر إلى عظم الأجور والمثوبات، فمن لمح فجر الأجر هان عليه ظلام التكليف.

٥. القلة العابدة العاملة خير من الكثرة المنحرفة العاطلة، فهنيئا لشاب أجلبت عليه الشهوات والفتن بخيلها ورجلها فاستعصم بربه ولاذ إلى مصحفه ومحرابه، وأنعم بفتاة تمسكت بلباسها واحتشامها رغم كثرة نداءات النفس وضغوط الصحبة بين شهوة وشبهة قالت: معاذ الله.

الحديث السابع
حلول نبوية لمشكلة اجتماعية

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَمْ نَرَ - يُرَ - لِلْمُتَحَابَّيْنِ مِثْلُ النِّكَاحِ» ابن ماجة والبيهقي بسند صحيح.

المعنى العام للحديث

رُوي هذا الحديث بثلاث صيغ: لم نر، لم ير، لم تر، فالأولى: لم نر: أي نحن، والثانية: لم يُر أي العقلاء، والثالثة لم تر: أيها السامع، والحديث يؤسس لكيفية التعامل مع حالات الحب والعشق بين رجل وامرأة قبل الزواج وكثيرا ما لا يكون هناك توافق أو تكافؤ بين المتحابين أو يكون العشق بينهما خارج عن الأطر المتعارف عليها مجتمعياً، كأن يكون فارق السن بينهما كبيراً، أو المستوى التعليمي أو المالي، أو شاب صغير السن يحب مطلقة أو أرملة، أو مسلم يتعلق قلبه بكتابية غير مسلمة وغير ذلك من الصور التي يغلب على الظن عدم نجاح الزواج فيها، وهو ما يؤيده سبب ورود الحديث فعن ابن عباس أن رجلا قال: يا رسول الله، في حجري يتيمة وقد خطبها رجل موسر، ورجل معدم، فنحن نحب الموسر وهي تحب المعدم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ليس

للمتحابين مثل النكاح» .

فالحديث يرشد الأولياء والمجتمع إلى التعامل الأمثل مع هذه الحالات التي تعتبر حالة مرضية بأن الزواج والتعجيل به هو الحل الذي يحميهما من الوقوع في الفاحشة المحرمة. فالحديث لا يؤسس للحب قبل الزواج وإنما يرشد لكيفية التعامل معه إذا وقع وتلك أمور اجتماعية وقلبية ونفسية واردة الحدوث في أي مجتمع، والنبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث يدعو الأولياء إلى عدم التفريق بين المتحابين بمنعهم من الزواج، أو حملهم على الوقوع في المحرمات، أو الزواج بعيدا عن المحيط الاجتماعي للأسرة، فالزواج للمتحابين خير علاج ووقاية وحماية وتقليل للمخاطر والأضرار التي يمكن أن تقع إذا منع المتحابان من النكاح.

وهذا المنهج النبوي مهم جدا للمسلمين في الغرب حيث يقع كثيرا أن تتعلق فتاة مسلمة بشخص لا يتوافق مع تفكير عائلتها وقد يكونوا على حق في عدم مناسبته لها، لكنها تصر على الارتباط به ويصر الأهل على الرفض مخالفين بذلك هذا الحديث النبوي الشريف فينتهي الأمر بهم إما إلى إكراهها على الزواج بغيره فلا تنجح الأسرة، أو تنتهي إلى رفض فكرة الزواج بالكلية، أو تترك البيت وتتزوج بعيدا عن أهلها، أو تقع فيما حرم الله، وما يجري على الفتيات يجري على الشباب وربما أكثر.

والمنهج النبوي هنا يقتضي المسارعة إلى تزويجهما مع الاستمرار في التوجيه والرعاية، ومن المعاني التي أشار إليها بعض العلماء استنباطا من هذا الحديث:

أن الزواج يثمر وينمي الحب وإن لم يكن هذا الحب موجوداً قبل الزواج.

رسائل الحديث:

١. الإسلام راعي الحاجات البشرية والميول القلبية للناس وتعامل معها بعملية وواقعية لا بمثالية وهمية.

٢. حركة المسلم تنضبط بضوابط الشرع، والشرع يفتح الطريق واسعا للحلال الطيب قبل أن يمنع الحرام الضار.

٣. الأصل أن يختار الشاب والفتاة عند الزواج من يتوافق معه ويغلب على ظنه حسب صفاته أنه سيُكّون معه أسرة مستدامة ناجحة، وأن الزواج المبني على التقارب والتكافؤ سيثمر الحب والمودة الدائمة.

٤. التوجيه بتزويج المتحابين لا يعني الدعوة إلى الحب قبل الزواج، وإنما الإرشاد إلى تقليل الضرر في التعامل مع حالات العشق بين شخصين غير متكافئين بتزويجهما.

٥. الأسرة المسلمة في الغرب أهم كيان يجب صيانته وحمايته بتحمل كل الأطراف المسؤولية عنه.

٦. قبل دعوة الأولياء إلى الالتزام بالمنهج النبوي في تزويج المتحابين لابد من دعوة الأبناء والشباب المسلم في الغرب إلى البر بآبائهم وعدم عقوقهم وإدارة الخلافات الأسرية بالحوار والتعاون والموازنة بين المصالح والمفاسد إذا تعارضت.

الحديث الثامن
الزنا يذهب بالإيمان

عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا زَنَى الرَّجُلُ خَرَجَ مِنْهُ الْإِيمَانُ كَانَ عَلَيْهِ كَالظُّلَّةِ، فَإِذَا انْقَطَعَ رَجَعَ إِلَيْهِ الْإِيمَانُ» سنن أبي داود (٤/ ٢٢٢) بسند صحيح.

المعنى العام للحديث

حرم الإسلام الزنا وعده من أكبر الكبائر والفواحش؛ لأنه يضر بكلية حفظ النسل أو النسب والعرض كما يعود على مقصد الاستخلاف وتعمير الأرض بالإبطال، وأوجب عقوبة حدية دنيوية على فاعله، وكثيرا ما يقف الناس عند العقوبة الحسية ويغفلون عن العقوبة الأخطر منها وهي العقوبة المعنوية القلبية التي يشرحها هذا الحديث وهي خروج الإيمان بالوقوع في الزنا وهي عقوبة أشد خطرا من العقوبة الحسية الحدية فماذا يبقى للإنسان بعد خروج نور الإيمان من قلبه، أو نفي الإيمان أصلا عنه كما في الحديث الآخر: **عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»، قال أبو سعيد: قلت وكيف يكون يا رسول الله؟ قال: «يخرج منه**

الإيمان، فإن تاب تاب الله عليه» مرقاة الصعود إلى سنن أبي داود (٣/ ١١٩٠).

وتفسيرات العلماء لنفي الإيمان عن الزاني أو خروجه منه مخيفة مرعبة فمنهم من قال: المراد نفي كمال الإيمان؛ لحديث أبي ذر -رضي الله عنه-: «مَنْ قَالَ لا إله إلا الله، دخل الجنة، وإن زنا وإن سرق»، وقيل أنه بمعصيته يكون منافقا نفاق معصية، وقيل: أي ليس بمستحضر فِي حالة تلبسه بالكبيرة جلال مَنْ آمن به، فهو كناية عن الغفلة، التي جلبتها له غلبة الشهوة، وقيل: عدم الأمان مَنْ عذاب الله، وقيل: يُسلب الإيمان حال تلبسه بالكبيرة، فإذا فارقها عاد إليه، قَالَ عكرمة: قلت لابن عباس: كيف يُنزع منه الإيمان؟ قَالَ: هكذا، وشَبَّك بين أصابعه، ثم أخرجها، فإذا تاب عاد إليه، هكذا. ثم شبك بين أصابعه، وقيل: يخرج منه نور الإيمان، وقيل: يخرج منه الحياء أي أنه وقت الزنا لا يستحي مَنْ الله؛ لأنه لو استحى منه، وهو يَعرف أنه مشاهد حاله، لم يرتكب الفاحشة، ولو أن العبد تذكر واحدة من هذه المعاني واستحضرها لما أقدم على الفاحشة المحرمها فأنى لعبد أن لا يستحي من مولاه، أو أن يكون منافقا بالمعصية، أو أن يطفئ نور الإيمان في قلبه فتظلم دنياه وآخرته.

ومعنى كان عليه كالظلة أي: السحابة شبه الإيمان بالسحابة لسرعة حركتها ذهابا وعودة، وما يترتب عليه من نزول المطر والخير والشمس أو منعه، فذهاب نور الإيمان بالزنا يكون سريعا كالسحابة وعودته بالتوبة والإقلاع كذلك.

رسائل الحديث

١. الزنا من أكبر الكبائر وأعظم الفواحش وعقوبته المعنوية في الدنيا أعظم من عقوبته الحسية.

٢. انطفاء نور الإيمان في القلب بالزنا أخطر عقوبة لصاحبها فمن أظلم قلبه أظلمت حياته وحرم التوفيق للطاعة وكان أقرب إلى الفواحش والمعاصي الأخرى.

٣. من رحمة الله بعباده المؤمنين أن فتح لهم باب التوبة والرحمة فمن تاب من الزنا عاد نور الإيمان إلى قلبه.

٤. على المسلم الأوروبي أن يتجنب المسالك الموصلة للزنا وأن يحفظ إيمانه بحسن صلته بربه، وبصحبة صالحة تذكره بالله، وأن يعجل الإحصان والتعفف.

٥. يجب أن يكون الخوف على كمال الإيمان بتجنب فاحشة الزنا أعظم من الخوف من العقوبة الحدية الدنيوية التي إن وقعت سيزول ألمها بعد حين ويبقى ألم القلب لا يزول إلا بتوبة صادقة للمولى الجليل.

الحديث التاسع
طلب الإحسان في كل شئت

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، قَالَ: قال رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، ولْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»، رواه مسلم.

المعنى العام للحديث

هذا الحديث كما قال الإمام النووي: «من الأحاديث الجامعة لقواعد الإسلام»، وهو يحمل قيمةً عليا نفتقر إليها اليوم وهي قيمة: الإحسان، وهو الأداء الحسن المتقن الجميل، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الله كتب أي: أمر وأوجب الإحسان على كل شيء، فالإحسان يجب أن يكون حاضرا في كل عمل للمسلم في الأعمال والأفكار والمشاعر، والإحسان قاعدة تشريعية عامة وهو مراد الحديث وقصده وإنما ضرب النبي صلى الله عليه المثل بالإحسان في القتل والإحسان عند ذبح الحيوان كأمثلة حية لتقريب الصورة من الأذهان؛ لأن الحيوان الذي سيذبح بأعلى درجات الرحمة يستوي عنده الإحسان إليه عند الذبح وعدم الإحسان، فهو في كل الأحوال مفارق للحياة إن عُذب أو

رحم من ذابحه، لكن الإسلام يريد من المسلم بهذه الصورة أن يتشبع بمعنى الإحسان والإتقان والجمال وأن يكون ذلك شعارا له في كل حياته ليس فقط عند ذبح الحيوان لأكله، فالإسلام لا يكتفي بأداء الأعمال على أي صورة وإنما يطلب الإتقان والتجميل والإحسان، والإسلام بذلك يريد تهذيب الإنسان وتخليصه من نزواته ورغباته والارتقاء بشخصيته من الحيوانية والشهوانية إلى الإنسانية والرحمانية.

وقد عدّد شراح الحديث صوراً عديدة وعجيبة للإحسان والرحمة بالحيوان عند ذبحه منها: أن لا تُحدَّ الشفرة والشاة تنظر إليها؛ فقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً أضجع شاة، فوضع رجله على عنقها، وهو يحد شفرته فقال له صلى الله عليه وسلم: «ويلك، أردت أن تميتها موتات؟ هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها». ومنها: أن لا تذبح شاة أمام أخرى؛ فقد نهى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن ذلك، ومنها: عدم جر الذبيحة إلى مكان ذبحها، ومنها: سقيها الماء قبل أن تذبح، ومنها: أن لا يباغتها بالذبح، ومنها: أن يكتفي بقطع الحلقوم والودجين، وأن لا يذبحها من القفا، وأن لا يكمل قطع الرقبة حتى تبرد؛ لئلا يبالغ في تعذيبها، ومنها: أن لا يشرع في سلخها حتى يتأكد موتها وسكونها. راجع: شرح صحيح البخاري لابن بطال (٦/ ٢٢)، وشرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد (ص: ٧٢)، ودليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (٥/ ٩٥)، وذخيرة العقبى في شرح المجتبى (٣٣/ ٣٦٦)

ويُفهم من هذا كله أن الرحمة العامة بالحيوان تقتضي وجود هذه الرحمة في مرحلة ما قبل ذبح الحيوان أيضاً في نظام حياته وتغذيته التي غدت في الحياة المعاصرة أشبه بالتعذيب؛ فما معنى أن يكره الحيوان على الأكل ليكبر بسرعة، وما معنى أن لا ترى الدجاجة الشمس حتى تذبح، وما معنى أن تعطى أدوية هرمونية ليكثر لحمها؟ كل هذا ليس من الرحمة أو الرفق بالحيوان وليس من الإحسان الذي أمرنا به النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث وحرى بفقهائنا المعاصرين أن يعيدوا النظر في شروط التذكية الشرعية وأن لا يكتفوا بتحققها عند الذبح وأن لا يقصروا الرحمة بالحيوان عند الذبح فحسب وإنما قبله وأثناءه وبعده؛ لأن الرحمة عامة والإحسان عام، وإذا كان الشرع قد اشترط في الجلالة) الدجاجة التي تلتقط القاذورات من الشوارع(أن تحبس أياما حتى يطيب لحمها فيقاس عليها حيوانات اليوم ونظام تغذيتها وضرورة أن يكون صحيا لا يضر الحيوان أو الإنسان.

إن النظر في نصوص التذكية والذبح وأقوال الفقهاء والشروط التي يجب توافرها في الحيوان المأكول نجد أنها تهدف لتحقيق أمرين: الأول: إراحة الحيوان وعدم تعذيبه، والثاني: تطييب لحمه وأن يكون صحياً لا يصيب آكله بالأمراض والأزمات الصحية. وهو ما لا نراه متحققا في طرائق الذبح المعاصرة.

إننا مع توجيهنا للمسلمين في الغرب بضرورة الالتزام بقوانين البلاد ونظمها في الذبح سواء في عيد الأضحى أو على مدار العام لنؤكد أيضا على ضرورة

أن يحملوا رسالة الإسلام في الرحمة بالحيوان سواء ذُبح أو لم يذبح وأن يبذلوا جهدهم لتحقيق أعلى صور الرفق والرحمة به قبل وأثناء ذبحه ليتمثلوا بذلك أمر نبيهم بوجوب الإحسان والرحمة عند الذبح.

وحقيق بالمسلمين في الغرب أن يجسدوا قيمة الإحسان والإتقان والجمال في كل عمل يؤدونه وأن تكون مساجدهم ومؤسساتهم وبيوتهم ناطقة بصور الإحسان والجمال إن أرادوا بحق أن يقدموا الإسلام للعالم بصورته الحضارية الإنسانية العالمية الجمالية.

رسائل الحديث

١. الإتيان بالأعمال على أكمل وأجمل وأفضل صورة مطلوب من كل مسلم في كل شأن من شؤون حياته، ولا يطلب منه مجرد العمل دون إتقان أو تحسين أو تجميل، وهذا هو الإحسان المراد في الحديث وهو مطلوب في كل شيء.

٢. كمال رحمة الله ورأفته بالإنسان والحيوان، حتى عند معاقبة المجرم على إجرامه تكون الرحمة بمن أجرم بحقهم، والرحمة به عند إنزال العقوبة عليه، وهذه الرحمة يجب أن يجسدها المسلم مع كل شيء في هذا الكون.

٣. الإسلام يرتقي بالمسلم ويطهره ظاهرا وباطنا، جسدا وروحا، ويهذب مظاهر الشهوانية والحيوانية عنده تجاه الإنسان والحيوان والجماد.

٤. الرحمة بالحيوان يجب أن تظهر قبل الذبح بتمكينه من الحياة الطبيعية وعدم إكراهه على الغذاء أو حرمانه من حياة الحيوان المعهودة، وأثناء الذبح بتجنب كل صور التعذيب أو الإيلام له وتقليلها قدر الإمكان، ويجب توظيف العلم الحديث لتحقيق ذلك.

٥. على المسلمين في الغرب أن يجسدوا رسالة الإسلام في الرحمة بالحيوان بمواجهة كل صور تعذيبه وإهانته فضلا عن قتله رغبة في التلذذ والاستمتاع بمشاهدته وذلك عبر الوسائل والطرق القانونية المتاحة.

٦. عالمية رسالة الرحمة وشمول مظاهرها لكل جوانب الحياة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]

الحديث العاشر

أخطر شهوتين على الدين

عَنِ ابْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حَرَصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ» أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي والدارمي وأحمد.

المعنى العام للحديث:

هذا الحديث من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم ولأهميته أفرد له الحافظ ابن رجب الحنبلي مؤلفا خاصا شرحه فيه بعنوان: (ذم الحرص على المال والشرف)، وقد ورد بروايات متعددة وكل رواية تضيف معنى للراوية الأصلية كرواية: ما ذئبان ضاريان في حظيرة، فذكر الحظيرة يعنى أن الذئبين حبسا الأغنام فيها وأنه لا مهرب لهم منهما وأن الهلاك والقتل غالب على السلامة والهرب، ورواية البيهقي: « ما ذئبان جائعان ضاريان في غنم قد غاب عنها رعاؤها بأفسد لها ..... « وفي رواية الطبراني «**مَا ذِئْبَانِ ضَارِيَانِ بَاتَا فِي حَظِيرَةٍ فِيهَا غَنَمٍ يَفْتَرِسَانِ وَيَأْكُلَانِ بِأَسْرَعَ فَسَادًا فِيهَا مِنْ طَلَبِ الْمَالِ وَالشَّرَفِ فِي دِينِ الْمُسْلِمِ**» والزيادة هنا في الافتراس والأكل والإسراع في الفساد، وقد شبه حرص المسلم على المال

والجاه وأثره في فساد دينه بذئبين جائعين عاديين مفترسين أرسلا في غنم غاب حارسهم وأغلقت الحظيرة عليهم مع الذئبين، فغالب الظن أنه لن يسلم من الذئبين إلا القليل من الغنم فكذلك لن يبقى من دين المرء الحريص على شهوة المال والجاه والزعامة والظهور إلا القليل.

ونحن في عالم اليوم أمام معركتين كبيرتين مع هاتين الشهوتين: المال والجاه ونرى أثر إفسادهما لدين الناس لهذا وجب الحذر والبيان.

* **الحرص على المال المفسد للدين وصوره:** بجمعه من حلال مع البخل على النفس به والحزن الشديد على فقده إلى حد المرض والوقوع في داء الشح الذي حذرنا القرآن منه بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، فيبخل به على نفسه وأولاده أو يبخل به عن حق الله فلا يؤدي زكاته، أو الانشغال بجمع المال عن تربية الأبناء على الدين وتعليمهم القرآن، فتراه أصلح دنياه بمالٍ كثير وحياة مترفة، وأضاع دينه ودين أولاده بالغفلة عنهم وعن إصلاحهم وحمل هم دينهم وهويتهم، أو يجمع المال من الحرام أو مما فيه شبهة حرام وهو أخطر الصور وأفسدها للدين. وإفساد المال للدين في عالم اليوم وفي الغرب بشكل خاص صار أوضح وأكبر من أي عصر مضى؛ لأن كسبه بالتحايل والشبهات صار أيسر ومصادر تكثيره والانشغال به وإن كان مباحا صارت أوفر، والغفلة عن حقوقه وما يجب فيه من حق الله صار أعم.

* **الحرص على الجاه المفسد للدين وصوره:** بطلب الزعامة والمسؤولية والتمسك

بها وإن لم يكن المرء كفؤا لها، وحب الشهرة والذكر بين الناس، وحب الألقاب، والتصدر للفتيا والدعوة مع عدم التأهل، وقراءة القرآن بالنغم الحسن طلبا للاشتهار ومديح الناس، وفتنة اللايكات وكثرة المعجبين التي عمت مواقع التواصل الاجتماعي وقل من سلم منها. وهذه الشهوة كذلك في عالم اليوم صارت تستهدف كل الناس باختلاف أعمارهم وكم يقع الناس في التدليس والكذب أو نشر خصوصياتهم طلبا للذكر والشهرة وحصاد عدد أكبر من المشادات والمتابعات، وفتنة الرئاسة والجاه مضاعفة في الغرب وقد كانت سببا في فرقة المسلمين وتشتتهم حيث كثرت المؤسسات والمراكز الدعوية دون تعاون أو تنسيق بينها، وكانت شهوة التصدر وحب الرئاسة سببا في تكريس الفردية وتضخم الأنا بدلا من الجماعية والعمل المشترك لخدمة الإسلام والمسلمين، فلم تفسد فقط دين صاحبها وإنما عطلت المصالح العامة للمسلمين وأخرتهم من حيث أرادوا أن يتقدموا.

* **المنهج الوسط في التعامل مع الشهوتين**: والوسطية في التعامل مع الشهوتين أن يكون طلب المال من الحلال الخالص وأن يحرص المرء على تطهير ماله وأداء زكاته وأن لا يصرف وقته في جمع المال على حساب فرائضه وواجباته الدينية وتربية أولاده، وكذلك في أمر الجاه والتصدر والشهرة والمسؤولية بأن يقدم الأكفأ منه وأن يتقدم إذا وجد نفسه كفؤا وأن يستمع إلى النصيحة من الثقات، وأن نعتدل في التعامل مع أدوات التواصل الاجتماعي دون إفراط أو تفريط.

رسائل الحديث:

١. على كل مسلم أن يحذر من ذئبي نفسه وتطلعاتها وليخش افتراسها وعدوانه على دينه، وليتخذ حارسا يقظا أمينا بتزكية دائمة لنفسه وتطهير مستمر لقلبه.

٢. ليس في الحديث ذم للغنى أو طلب المال ففي الحديث الصحيح: «نعم المال الصالح للرجل الصالح» القضية أن يكون المال في يدك لا في قلبك وأن تحذر داء الشح والبخل بمال الله الذي آتاك.

٣. المذموم والمضر بالدين هو طلب من ليس كفؤا للمسؤولية أو الحرص عليها لهوى نفسي أو كسب شخصي، أو إزاحة لمن هو أكفأ عنها أو الاستبداد بها والبقاء فيها أبداً.

٤. ليس من الإضرار أو الفساد للدين سؤال المنصب أو التطلع إليه إذا كان بحقه وكان طالبه أهلا له أو لم يكن الولاة والناس على علم به قال تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

٥. لابد من الاعتدال والتوسط في التعامل مع وسائل التواصل الاجتماعي وترشيد استعمالها وفرق كبير بين طلب الشهرة والحرص عليها بشتى الوسائل، وبين الاشتهار لنشر الفكرة القيمة والعلم النافع.

٦. المسلمون في الغرب أحوج الخلق إلى هذه الرسالة النبوية والحذر من الذئبين المفترسين للدين؛ لأنهم يعيشون في عالم مادي يتوحش فيه ذئب المال، وبيئة إسلامية بخلفيات تاريخية وعرقية يتضخم فيها ذئب الجاه.

الحديث الحادي عشر
النهي عن الضرب وتقبيحه

عَنْ عُرْوَةَ عن عَائِشَةَ قَالَتْ: «وَاللهِ مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ امْرَأَةً لَهُ قَطُّ، وَلَا خَادِمًا لَهُ قَطُّ، وَلَا ضَرَبَ بِيَدِهِ شَيْئًا قَطُّ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَا خُيِّرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ قَطُّ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ مَأْثَمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ، وَوَاللهِ مَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ مِنْ شَيْءٍ قَطُّ يُؤْتَى إِلَيْهِ حَتَّى يُنْتَهَكَ مِنْ حُرُمَاتِ اللهِ فَيَنْتَقِمُ للهِ» مسلم، والنسائي وأحمد بسند حسن

المعنى العام للحديث

في هذا الحديث تصف السيدة عائشة رضي الله عنها حال النبي صلى الله عليه وسلم مع قضية بالغة الخطورة في عصرنا وهي الضرب فتقسم أنه صلى الله عليه وسلم لم يضرب بيده امرأة له قط فلم يثبت في السنة العملية وقوع الضرب منه صلى الله عليه وسلم لزوجة من زوجاته رغم وقوع النشوز من بعضهن ولم يقع منه الضرب ولو تعليما للجواز، ونفي السيدة عائشة للضرب جاء عاما فلم يضرب خادما حرا أو عبدا ولا أمة حرة أو أمة، وَلَا ضرب بيده الشريفة قط شيئًا ممن يملك أمره وتأديبه وانتقامه؛ كالولد والدابة قط في عمره،

إلَّا أن يجاهد في سبيل الله الجهاد المشروع بشروطه ونظامه.

وقد وردت نصوص كثيرة في السنة النبوية تنهى عن الضرب وتقبحه منها: قوله صلى الله عليه وسلم: «**لَا تَضْرِبُوا إِمَاءَ اللَّهِ**» أبو داود وغيره، وقوله: «وَلَنْ يَضْرِبَ خِيَارُكُمْ» المستدرك على الصحيحين للحاكم، وقوله: « أَيَضْرِبُ أَحَدُكُمُ امْرَأَتَهُ كَمَا يَضْرِبُ الْعَبْدَ ثُمَّ يُجَامِعُهَا فِي آخِرِ الْيَوْمِ « السنن الكبرى. وهو استفهام استنكاري توبيخي لإظهار التناقض بحق من يضرب، **وقوله صلى الله عليه وسلم لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وقد وهبه خادماً: «لَا تَضْرِبْهُ؛ فَإِنِّي قَدْ نَهَيْتُ عَنْ ضَرْبِ أَهْلِ الصَّلَاةِ، وَقَدْ رَأَيْتُهُ يُصَلِّي» البخاري في الأدب المفرد بسند حسن،** وإذا نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن ضرب الخادم فالزوجة من باب أولى، وفي الحديث نهى عام عن ضرب أهل الصلاة.

وقد يظن أن ثمة تعارض بين القرآن الذي أباح الضرب في قوله تعالى: **﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤]** وبين السنة القولية والعملية التي نهت عن الضرب وقبحته وأنكرت على فاعله كما في النصوص التي أوردناها.

والحق أنه لا تعارض فإن آية النساء مبنية على العرف وعلى عدم عد الضرب إهانة أو انتقاصا من كرامة المرأة، والنص المبني على العرف يكون مغيا بانتهائه، ويكون العرف المستقبح للضرب مخصصا للنص الجزئي المبيح

له وهو آية النساء؛ لأن هذا العرف استند إلى نصوص جزئية كثيرة تنهى عن الضرب وعليه فلا ضرب اليوم سواء كان مبرحا أم غير مبرح بالسواك أو غيره؛ لأنه يعد وسيلة صالحة لإصلاح نشوز الزوجة وهو ما قرره **المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث** في قراراه ٩٤ (٣/ ٢٤) في الدورة الرابعة والعشرين : ٢٣- شوال ١٤٣٥هـ الموافق ١٦-١٩ آب (أغسطس) ٢٠١٤ م ومما جاء فيه بتصرف واختصار: «**رابعًا**: في حالة تفاقم الخلافات الزوجية، وكراهية الزوج لزوجته، أو معاملة الزوجة لزوجها بصورة غير لائقة فيها التعالي أو التحقير، أو إهمالها لواجبات الزوجية كما حددها الله تعالى وبيّنها رسوله صلى الله عليه وسلم، وهو ما يطلق عليه في القرآن الكريم (النشوز)، فإن الآية الرابعة والثلاثين من سورة النساء توجه الزوج إلى التفاهم مع زوجته بالحكمة والموعظة الحسنة للوصول إلى حل عادل لهذه الخلافات، فإن لم يؤد ذلك إلى نتيجة مُرضية، فإن له أن يهجرها في المضجع بطريقة سلمية يعبر فيها عن عدم رضاه عسى أن يدفع ذلك زوجته إلى مراجعة نفسها، وعدم إغضابه أو إيذائه بالفعل أو القول، أو عدم الاعتراف بمسئوليته التي كلفه الله بها (القوامة)، وريادته للأسرة في إطار العدل والتشاور والتفاهم مع زوجته.

خامسًا: إذا أخفقت الخطوتان السابقتان في علاج هذه الخلافات فليس هناك مانع شرعًا أن يطلق زوجته إذا أراد، وهو أمر مباح، ولكنه لا يشجَّع عليه إن كانت هناك وسيلة هي أقل ضررًا من الطلاق، بما يعطى الفرصة للإبقاء على

كيان الأسرة وتجنب الآثار السلبية الكثيرة التي تنتج عن تفككها.

أما الخطوة الثالثة المشار إليها في الآية بقوله تعالى: **وَاضْرِبُوهُنَّ**، فيجب أن يُفهم هذا التصرف في إطار تكريم الله تعالى للمرأة كتكريمه للرجل، وأنه لم يَشْرَع إهانتها واحتقارها، بل نهت السنة عن ذلك نهيًا صريحًا، وما يُفْهَم من دلالة هذا اللفظ **وَاضْرِبُوهُنَّ** في حق الزوجة الناشز، فخير ما يفسره هو هدي النبي صلى الله عليه وسلم الذي أوكل الله إليه تفسير القرآن، وهو أنه لم يضرب امرأة من نسائه في حياته قط، وذم من يفعل ذلك.

والذي نرجحه بالتأمل في نصوص الشريعة، مع اعتبار المقاصد الكلية والجزئية، هو عدم الضرب؛ وذلك رعاية للعرف المعاصر والقوانين السائدة المتفقة مع الهدي النبوي.

وبناء على ما سبق يوصي المجلس بالآتي:

على المسلمين في أوروبا وغيرها أن يلتزموا بما ورد في القرآن والسنة في شأن الحقوق والواجبات المتبادلة والمتكاملة بين الزوج وزوجه، بما ذلك اتخاذ الإجراءات الوقائية والمبكرة لمنع تفاقم الخلافات الزوجية، وأن لا يلجؤوا إلى الضرب مهما كان خفيفًا أو رمزيًا؛ وذلك تأسيًا برسول الله صلى الله عليه وسلم.

أن ينشروا الثقافة الإسلامية التي تبصِّر المسلمين رجالًا ونساء بأمور دينهم، وبخاصة ما يتعلق بأحكام الأسرة، مع تجنُّب أي محاولة إساءة فهم أو تطبيق

للآية السابق ذكرها». فهذا قرار من مؤسسة اجتهادية جماعية كبرى ينتهي إلى منع الضرب ويجب أن يكون مرجعا للمسلمين في الغرب ومنطلقا للمجامع الفقهية في العالم الإسلامي أن تمنع الضرب بكل صوره وأشكاله. وراجع بحثي: العرف الأوروبي وأثره في قضايا المرأة فقد فصلت فيه القول في المسألة بالرجوع إلى أقوال الأصوليين والفقهاء.

والجزء التالي من الحديث **قولها عنه صلى الله عليه وسلم**: «**وَلَا خُيِّرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ قَطُّ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ مَأْثَمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ**» وترجيح التيسير على التعسير منهج نبوي، وذكره عقب النهي عن الضرب مناسب له، فإن ترك الضرب الأيسر والأرفق، وكما قال الفقيه سفيان الثوري: إنما الفقه الرخصة من ثقة أما التشدد فيحسنه كل أحد. ومما يلاحظ في الخطاب القرآني أن جميع آيات الأحكام ختمت بالتأكيد على التخفيف والتيسير ورفع الحرج كقوله تعالى عقب آيات الصيام: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾ [**البقرة: ١٨٥**]، وقوله عقب ذكر المحرمات من النساء ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا**﴾ [**النساء: ٢٨**] وقوله عقب آية الوضوء: ﴿**مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ**﴾ ،

ومنهج التيسير في الفتوى ما دام الخلاف معتبراً هو الذي يناسب المسلمين في الغرب لأنه يمكنهم من العيش بدينهم ورعاية خصوصيتهم والإسهام في البناء الحضاري للمجتمعات الغربية وتحقيق المواطنة الصالحة.

رسائل الحديث:

١. نَهى النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن الضرب وقبَّحه ولم يثبت وقوعه منه في حياته ولو مرة، والقرآن يفهم في ضوء السنة فلا ضرب اليوم؛ لأن الآية تأسست على القبول العرفي والمجتمعي للضرب وعدم عده إهانة وأن يكون وسيلة منهية للنشوز وهو ما انتفى تماما في عالم اليوم فالسنة الموافقة للعرف والمحققة للمقصد القرآني هي ترك الضرب بالكلية.

٢. كمال رأفة ورحمة النبي صلى الله عليه وسلم بأمته رجالا ونساء كبارا وصغارا أحرار ومملوكين.

٣. السنة النبوية شارحة للقرآن ومبينة له ولا يمكن أن تتعارض معه أو تخالفه، وخير تفسير للقرآن هو السنة القولية والعملية.

٤. من ساء خلقه من المسلمين فضرب زوجته عليه أن لا ينسب ذلك للقرآن أو الإسلام وإنما ينسبه لسوء عشرته وخلقه.

٥. منهج التيسير في الفتوى والتبشير في الدعوى منهج نبوي وهو الأنسب للمسلمين في الغرب؛ فإذا كنا أمام مسالة خلافية والخلاف فيها معتبر فأخذ المسلمين بالأيسر وإن كان مرجوحا أولى من غيره لأنه سبيل لحفظ دينهم وهويتهم ولمثل ذلك شرع الخلاف في الفروع.

٦. مشروعية الأخذ بالرخص بضوابطها الشرعية المبسوطة في كتب الفروع.

شهر رمضان والقيم الأخلاقية والتربوية

الشيخ: طه سليمان عامر

رئيس هيئة العلماء والدعاة بألمانيا

عضو المكتب التنفيذي للمجلس الأوروبي للأئمة

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وبعد،

فإنَّ اليوم عالمنا يعيش أزمةً قيمية كبيرة، روحياً وأخلاقياً وفكرياً، وعلى المسلمين عامة ومسلمي الغرب خاصة أنْ يبذلوا جهوداً متنوعة للنهوض بالقيم وترسيخها وإسعاد الناس بها، انطلاقاً من رسالتنا ودورنا الحضاري، والمخزون القيمي الإسلامي الزاخر بها عباداتنا.

وشهر رمضان العظيم منحة للقلوب القلقة أن تسكن، وللأرواح العطشى أن ترتوي، وللنفوس المرهقة من الحياة أن تثوب إلى ربها . ويومَ تحيا قلوبنا من خُمودها، وتستنير بعد خُفوتها، وتستيقظ بعد غفلاتها، فإننا سنعود إلى أصل فطرتنا التي فطرنا ربنا عليها .

لقد حاولت في كلمات قليلة أن أُسَلط الضوء على مجموعة من القيم الروحية والأخلاقية والتربوية التي يُذكرنا بها شهر رمضان المبارك ويحييها في نفوسنا، فعسى قبساً من أنواره تدركنا فنخرج بعد شهر رمضان بقلوب أتقى وأرواح أرقى وأعمال صالحة في الآخرة أبقى .

والله يتولانا برحمته ويجعلنا في هذا الشهر من الفائزين.

طه سليمان عامر

أطل علينا شهر رمضان والقلوب في ظمأ أشد من الأرض الهامدة ليحييها بأنواره وفضائله، ويُزيل ما عَلِق عليها من غبار الشهوات، وآثار الغفلات، وقسوة الحياة المادية التي نعيشها، سيما في البيئة الأوروبية.

وقد اعتنى القرآن الكريم عناية فائقة بالحديث عن القلوب وأنواعها وأمراضها وأغذيتها وأثر صلاحها وفسادها على الفرد والحياة.وعنى العلماء بقضية إصلاح القلوب وفي مقدمتهم علماء السلوك، وللإمام ابن القيم كتابات مهمة في هذا الباب، تجده في إغاثة اللهفان وفي الوابل الصيب وغيرهما مما لا تجده في غيره بهذا التحقيق والنَّفَس.

ذكر الإمام ابن القيم أن مفسدات القلوب خمسة: « كثرة الخلطة، والتمني، والتعلق بغير الله، والشبع والمنام «.

وعن أثر هذه الخمسة على القلب يقول: « وهذه الخمسة تُطفيء نوره، وتُعور عين بصيرته، وتُثقل سمعه - إن لم تُصمه وتُبكمه - وتُضعف قواه كلها.وتُوهن صحته وتُفتر عزيمته، وتُنكسه إلى ورائه، ومن لا شعور له بهذا فميت القلب. وما لجرح بميت إيلام.»[1]

شهر رمضان منحة إلهية، لطفاً من الله بعباده، فمن أراد أن يُطهر قلبه من غفلات الحياة، ويغسل قلبه من أدران الذنوب، ويزيح عنه هموم الدنيا

(١) (تهذيب مدارج السالكين / عبد المنعم صالح العزي/ ص٢٢٢)

ومكدراتها، فهو شهر رمضان مغتسلٌ باردٌ وشرابٌ.

إن أسباب إصلاح القلوب واستنارتها وافرة كاملة في شهر رمضان.

وأعظم وسيلة لتزكية النفس وتطهير القلب وإحيائه وزيادة إشراقه، هو: القرآن الكريم، قراءةً وحفظاً وتدبراً ومعايشةً، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧] شفاء لما في الصدور من الهموم والغموم، من الشك والأوهام، من القلق والأرق، من اليأس والعجز، من الجهل والحيرة، من الحسد والحقد.

وهدى ورحمة، فمن أقبل عليه بقلبه يبحث عن دواء لمرض نزل به هداه الله، ومن أشكلتْ عليه الطرق وسأل الله الهداية والنجاة أخذ بيده وأيقظ قلبه ودله على الخير وسبيله، ومن أقبل عليه يطلب العلوم والمعارف أشرق على عقله وقذف في قلبه بالحكمة والمعرفة الربانية.

بالقرآن نزداد إيماناً

القرآن نور وللإيمان في القلب نور، فإذا قرأ المؤمن القرآن الكريم أضحى نوراً على نور. وآية المشكاة في سورة النور لها إشراقات في هذا المعنى. وأوصي بالاستماع والاستمتاع بتفسيرها للإمام الشعراوي رحمه الله ورضي عنه.

الحاصل أن تأثير القرآن في القلوب إنما يكون بقدر الإيمان فيها، ونحن نعاين هذا من أنفسنا بحسب الأحوال الإيمانية، والاستعدادات النفسية، والتهيئة القلبية، والبيئة الربانية، وشرف الزمان والمكان.

حين تقوم من الليل فتقرأ القرآن قائماً وساجداً، تجد له لذةً وحلاوةً.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]

فإذا كان وقت الفجر فإن للقرآن هنالك حضوراً وشهوداً.

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]

ولا شك أن حضور القلب أثناء القراءة واستشعار رحمة الله وتعظيم كتابه يفتح للمؤمن أبواب التدبر والفهم ومعايشة المعاني فيزيده الله خضوعاً وخشوعاً وإيماناً.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]

هل تذكرتَ ليلةً صليت في الحرم المكي أو المدني أو غيرهما من بيوت الله، وقد فتح الله على الإمام في القراءة بصوت شجي وحضور قلبي؟

كيف كان قلبك ساعتها؟ هل نسيت هذه التلاوة؟ أم أن صداها بقي في أذنيك إلى الآن؟ هل كنت تود ألا يفرغ من التلاوة؟

ما هو السر؟...إنه اجتماع شرف الزمان والمكان وحضور القلب بعد جهد إيماني فزاده القرآن نوراً وإيماناً.

وستجد لقراءة القرآن حلاوةً ونعيماً في شهر رمضان، وخاصة في العشر الأواخر، سِيَّما التهجد، حيث الرحمات الهاطلة من السماء، والقلوب المتصلة بعلام الغيوب، والمغفرة والعفو منا قريب.

إذا أردنا أن يعيش أولادنا مع القرآن الكريم بقلوبهم وتتصل به أرواحهم فعلينا أن نصنع لهم بيئة إيمانية، مثل:

مبيت في المسجد يصاحبه برنامج إيماني تربوي، فإذا قاموا بالليل يتلون كتاب الله جلَّ جلاله، حينها تتأثر قلوبهم وتسمو نفوسهم.

وتجربتنا في المخيمات القرآنية التي ننظمها للشباب خير شاهد على إشراق قلوبهم بالقرآن الكريم في تلك الأجواء الفريدة.

إنه القرآن العظيم.

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]

حال المسلم مع القرآن في شهر رمضان

هل تنشغل فقط بكثرة القراءة وعدد الختمات؟ هل الأفضل أن تعكف على تفسير سورة خلال شهر رمضان وتدبر معانيها؟ هل يمكن أن تطالع تفسيراً موجزاً للقرآن الكريم؟ ما هو الأفضل في شهر رمضان؟

يحضرني هنا ما جاء في كتاب الإحياء عن بعض السلف أنه قال:

لي في كل جمعة ختمة (أي: أسبوع)، ولي في كل شهر ختمة، ولي في كل عام ختمة، ولي ختمة لم أفرغ منها منذ ثلاثين عاما.

ما هذا؟

ربما أراد أنَّ له ختمة مراجعة للقرآن الكريم للتثبت، وهذا مسلك الحفظة، فلا يُشترط فيها حضور القلب وتأمل المعاني.

ثم هناك ختمة شهرية، ربما تكون ختمة قيام، أي: يقوم كل ليلة بجزء من القرآن العظيم، وأما الختمة السنوية ربما تكون ختمة تفسير وتدبر، وأما ختمة العمر فربما تكون ختمة التحقق بالقرآن، أي: التخلق بأخلاقه، وتنفيذ أوامره، والوقوف عند حدوده وزواجره، والترقي في مدارجه.

والحاصل: أن الأمر يختلف بحسب الأحوال والظروف والقدرة والأشخاص، لكن يمكن أن نشير إلى ما يلي:

١- احرص على كثرة قراءة القرآن الكريم واختمه على الأقل مرةً، وإن زدتَ فهو خير لك.

واعلم بأنَّ كثرة القراءة بقصد الأجر فقط لا بأس.والمأثور عن السلف كثرة عدد الختمات، وكان الفقهاء يتركون الانشغال بالفقه ويُقبلون على القرآن الكريم، وذكر ابن رجب الحنبلي في لطائف المعارف طرفاً من أحوالهم، فلنرجع إليه.

٢- تخيَّر سورة من القرآن الكريم خلال شهر رمضان وانشغل بتفسيرها وتدبرها والتحقق بمعانيها وإنزالها على قلبك.

٣- اجعل لك مع أسرتك كل يوم جلسة تلاوة وتدبر لكتاب الله تعالى.

٤- احرض على القيام بالقرآن الكريم مع الجماعة في المسجد، وفي خلوتك.

أهل السلوك وإصلاح القلوب

وعند قراءة كتب السلوك ومطالعة ما كتبه الصوفية في إصلاح القلوب سنجد أن جوهر ما دندنوا حوله موفور في هذا الشهر العظيم.

ولعلهم من أبرز الجماعات في تاريخ الإسلام ممن برعوا في تربية النفس وتزكيتها وتصفيتها والأخذ بزمامها إلى الله تعالى، وقد اجتهدوا في وضع طرائق ووسائل منها:

الجوع، والعزلة، والصمت، والسهر، والأوراد.وسنقف مع بعضها وقفات

لنرى صلتها بصوم رمضان.

ورغم الانحراف الذي مس كثيراً من تلك الطوائف إلا أنَّ أقطاب الصوفية وعلماءهم الكبار تركوا رصيداً زاخراً عظيماً منضبطاً بأصول الشريعة وقد أطلق شيخ الإسلام ابن تيمية مصطلح علم السلوك على «التصوف».

يقول الإمام الجنيد: - وكان يلقبه الإمام ابن القيم ب «سيد الطائفة» - ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، ولكن عن الجوع، وترك الدنيا، وقطع المألوفات والمستحسنات، أي: بشدة المجاهدة.

ولا ريب أن بعض الطوائف أخطأت في اتخاذ طرقٍ لتهذيب النفس والروح وحادت عن الوسط، فجاء الإسلام بتشريع الصوم الذي اجتمعت فيها جميع وسائل التزكية وترقية الروح، فَمن رام مبدأ الحرمان تأديباً للنفس فهاك الصوم.

كتب الإمام أبو حامد الغزالي في أسرار الصوم وشروطه الباطنة:

« ألا يستكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار بحيث يمتلئ جوفه، فما من وعاء أبغض إلى الله عز وجل من بطن مليء من حلال. وكيف يستفاد من الصوم قهر عدو الله وكسر الشهوة إذا تدارك الصائم عند فطره ما فاته ضحوة نهاره. وربما يزيد عليه في ألوان الطعام.

ومعلوم أن مقصود الصوم الخواء وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى.[٢]

ونرى أن الصائم يعاين من نفسه الفارق الكبير حينما يتخفف قليلاً من الطعام عند الإفطار وأثره على قلبه وخفة روحه في صلاة التراويح.

لقد شَقِيَ العالم وشقينا معه طويلاً حينما عكفنا على خدمة الجانب المادي وتغافلنا عن روحنا وقلبنا. وقد ظننا أن أقدامنا هي التي تحملنا وتجري بنا كما نبغي نحو مواطن السعادة والرخاء، ونسينا أنَّ قلباً فارغاً من الآخرة عاكفاً على دنياه لاهثاً خلفها سيظل حائراً خائفاً مضطرباً حتى يرتوي من مادة الوحي الأقدس.

وانطلق يَعُبُّ من الشهوات عبًّا، وكلَّما نال حظاً منها سئم وفتَّش عن غيرها لعله يجد فيها الدواء، ولا يدري أنه الداء الذي يجلب أنواع البلاء.

ووسط هذا الركام من تَزَاحُم الدنيا على القلب والروح يأتي شهر رمضان ليعيد التوازن الروحي للمسلم.

أثر العزلة في تزكية النفس

جعل الإسلام العزلة وسيلة للصفاء الذهني والروحي، وقد كان الرسول ﷺ قبل الوحي يعتزل في غار حراء، وسن لنا رسول الله ﷺ الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان، واعتكف الرسول ﷺ عشرين يوماً في آخر حياته.

(٢) باختصار/ إحياء علوم الدين / جـ ١ صفحة ٣٠٨

على أن مقصود العزلة ليس هروباً من واجب، أو يأساً من الاجتماع البشري، بل هو محطة للتنقية وشحن القلب وتطهيره من غيوم الذنوب، وهموم الدنيا وأشغالها حتى يعود مرة أخرى خَلقاً جديداً في فكره النقي وقلبه التقي وفؤاده الذكي وعمله الرضي.

ولا ريب أن قلوبنا بحاجة في عصرنا لخلوة من وقت لآخر نرجع فيها لأنفسنا، ونعكف طويلاً على كتاب الله تعالى وتدبره، وعلى النفس وتهذيبها، وعلى ما يُصلح الأمة من أفكارٍ ودراساتٍ ومشروعاتٍ.

ما أجمل عبارة الإمام ابن عطاء الله السكندري:

«ادفن وجودك في أرض الخمول، فما نبت مما لم يُدفن لا يتم نتاجه. ما نفع القلب شيء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة. كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته، أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته. أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله ولم يتطهر من جنابة غفلاته، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته».

أدعوكم للعودة إلى شروح حكم ابن عطاء الله القديمة، ومنها: شرح الشيخ زروق أو ابن عباد النفري أو ابن عجيبة، أو المعاصرة للشيخ سعيد حوى في كتابه «مذكرات في منازل الصديقين والربانيين».

وقد تعرض شيخنا الغزالي لعدد من الحكم بأسلوبه الفريد في كتابه «الجانب العاطفي في الإسلام».

كيف نصوم صيام الصالحين؟

حينما تحدث الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى في الإحياء عن أسرار الصيام تكلم عن صوم العوام وصوم الخواص، وذكر أن صوم العوام هو صيام عن الطعام والشراب والشهوة فقط، أما صوم الخصوص فهو صوم الصالحين، ونرجو أن نعزم على الوصول لدرجته في عامنا هذا.

وذهب الإمام بأن تمام صوم الخصوص يكون بستة أمور، نذكرها باختصار، والعودة إلى الإحياء فيه للقلوب إحياء.

الأول: غض البصر عن كل ما يُذَم ويُكرَه، وكل ما يشغل عن ذكر الله.

الثاني: حفظ اللسان عن آفاته.

الثالث: كف السمع عن كل مكروه.

الرابع: كف بقية الجوارح عن الآثام.

الخامس: ألا يستكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار.

السادس: أن يكون قلبه معلقاً بعد الإفطار بين الخوف والرجاء، هل قَبِل الله صومه أم رده عليه.[٣]

ومما استرعى انتباهي شكوى الإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله من ظاهرة

---

(٣) (للاستزادة: راجع الإحياء ج١ ص ٣٠٦-٣٠٩)

الإكثار من الطعام في شهر رمضان يقول: « واستمرت العادات بأن تُدخر جميع الأطعمة لرمضان فيؤكل من الأطعمة فيه ما لا يؤكل في عدة أشهر..».

قلت: لقد ظننت أنَّ زماننا هو المتفرد بالإكثار من الإنفاق في شهر رمضان وإذا بها أزمة قديمة تضيق قليلاً أو تتسع بحسب عوامل اقتصادية واجتماعية وثقافية، وحتى نكون واقعيين لا يصح أن ندعو الناس أن ينصرفوا بالكلية عن تلك العادات، لكننا نريد الترشيد، فلينتبه المسلم وليتوسط في الأمر فلا يُضْعِف أثر صومه بكثرة طعامه بعد الإفطار.

وإنَّنا يُعاين من نفسه الفارق الكبير بين أن تقوم للصلاة بعد الإفطار وأنت خفيف من الطعام وضده.

بين الإفراط والتفريط تضيع الحقوق وتفسد الحياة ويختل الميزان. وحينما أتتبع لوناً من الخطاب الذي ينعي على المسلمين الإسراف في الطعام والشراب في شهر رمضان أجد مبالغة وشططاً ومجافاة للواقعية، والمسألة تتطلب توسطاً في النظر والمعالجة، فلا نجلد الناس ونقسوا عليهم فينفروا من الدين وأهله، ولا نسكت على بعض مظاهر الاستهلاك المجنون، دون توجيه حكيم.

لا بأس أن يوسع المرء على نفسه وأهل بيته في المناسبات الدينية وغيرها بقدر وسعه دونما إسرافٍ أو تضييعٍ للحقوق أو أصحاب الحاجات.

وعلينا أن نضع في اعتبارنا عدة أمور:

- أنَّ الزمان قد تغير وأن الناس يختلفون في حاجاتهم وقدراتهم، فلا تصلح بعض مضامين خطاب الأجيال القديمة للأجيال الجديدة.

- حينما ترتبط المناسبات بالطيبات من الرزق- في غير إسراف فهذا مما يزين الطاعة لقلوب أولادنا.

- الموازنة بين مطالب الروح ومطالب الجسد دون بخس أو شطط.

- لا بأس بالتقشف التربوي المقصود - بعض الأيام -، تربيةً للإرادة، وتعزيزاً لسلطان الروح، وتنميةً للشعور بالفقير، وتقويةً لملكة المجاهدة. فيمكن أن تصوم الأسرة وتفطر على طعام الفقير، ولو كانت تلك الأسرة من ساكني القصور، أو تتصدق بثمن وجبة الإفطار لصالح من يَعضهم الجوع.

شهر رمضان وتعظيم الحرمات

ذكر الإمام ابن القيم في تفسير هذا الآية:

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]

قال جماعة من المفسرين: حرمات الله ها هنا مغاضبه، وما نهى عنه، و» تعظيمها» ترك ملابستها.

قال الليث: حرمات الله ما لا يحل انتهاكها. وقال قوم: الحرمات هي: الأمر

والنهي. وقال الزجاج: الحرمة ما وجب القيام به، وحرم التفريط فيه. وقال قوم: الحرمات ها هنا المناسك، ومشاعر الحج زماناً ومكاناً.

والصواب: أن الحرمات تعم هذا كله.

وهي جمع حرمة. وهي ما يجب احترامه وحفظه من الحقوق والأشخاص والأزمنة والأماكن.

فتعظيمها: توفيتها حقها، وحفظها من الإضاعة، والخروج من حرج المخالفة وجسارة الإقدام عليها، بتعظيم الأمر والنهي، خوفاً من العقوبة، وطلباً للمثوبة.(٤)

إن نعيش زماناً يُغرق أهلَه بالغفلة، ويغريهم بتجاوز حدود الله، ويوقعهم في مقارفة الإثم، إلا من رحم الله.

ورحم الله شيخنا محمد الغزالي، كان يقول: «ما كان قاصراً على الملوك أصبح ميسوراً لكل صعلوك».

وللشيطان على المرء مسالك ومداخل، فإن وجده مستعصياً أبيَّاً على الكبائر أغراه بالصغائر وزينها له وهون منها في نظره، كما **في رواية أنس بن مالك رضى الله عنه: إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا، هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعَرِ، إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْمُوبِقَاتِ. رواه البخاري.**

بل إن التوسع في المباحات أضعف من همة الناس في الطاعات والإقبال على

(٤) تهذيب مدارج السالكين/ عبد المنعم صالح العزي ص ٢٨٦

العبادات.

فنحن بحاجة أن نعظم حرمات الله تعالى في القلوب وهذا هو السائق لاهتبال نفحات أيام الله ومجانبة السوء.

لذلك قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢]

فالقلب هنا هو المحور في شأن تعظيم الأمر والنهي.

وشهر رمضان يعلمنا ويدربنا على تعظيم الحرمات من خلال جملة من الأمور، منها :

- تترقب الأمة كلها قدوم الشهر الكريم في أنحاء العالم الإسلامي عبر العصور، عبر مؤسساتها الدينية والشعبية.

- الاحتفال والاحتفاء بقدوم شهر رمضان بكل مظاهره سِيمَّا في البلاد الإسلامية.

وما أحوج المسلمين في الغرب أن يبدعوا في وسائل الاحتفال والابتهاج بهذا الشهر العظيم حتى تتعلق الأجيال قلبياً بشهر رمضان.

- ترقب ساعة الإفطار، واحتياط المسلم في وقت الإفطار، وقد نجد من يقول لأخيه باقي دقيقة على الإفطار.

كذلك يمتنع ويحذر المسلم قبيل الفجر عن المفطرات. وبعضهم يمسك قبل الوقت بخمس عشرة دقيقة أو أقل أو أكثر

- إذا أتى رمضان وجدنا كثيراً ممن لا يصلون سائر العام يهدى الله قلوبهم للانتظام في المساجد.

وهذه الظاهرة لا يفسرها سبب واحد فقط، إلا أنَّ من أهم عواملها تعظيم حرمة الشهر الكريم في نفوس المسلمين.

ويقذف الله في قلوبهم محبة العودة إليه والوقوف بين يديه والتماس الرحمات والتعرض في شهر رمضان للنفحات.

ولا شك أن الحالة الإيمانية الجماعية تلعب دوراً كبيراً في الالتزام بالطاعات وتعظيمها.

- تعظيم الحسنة ومضاعفتها وتعظيم الذنب ومضاعفته بحسب شرف الزمان والمكان.

فالحسنة مضاعفة في المسجد الحرام، وكذلك السيئة كما نص على ذلك العلماء ومنهم الإمام العز في قواعد الأحكام.

لهذا يحترس كثير من الصائمين من الوقوع في المعاصي حتى لا يكون حظهم من الصوم الجوع والعطش كما جاء في الحديث، وما ذلك إلا تعظيما للشهر الكريم.

- كثرة أسئلة المسلمين عن فقه الصيام، وتتكرر الأسئلة كل عام حول سنن الصيام وآدابه ومفطراته إلخ، ويعكس ذلك تعظيم المسلمين للعبادة وحرصهم على صحتها.

- يتسابق كثير من الأطفال في الصيام رغم مشقته عليهم، ونحن ندعو إلى نهج الصحابة الكرام الذين كانوا يأخذون بأيدي أولادهم للطاعات بالترغيب وتزيين العبادات إلى قلوبهم وعقولهم.

- الصيام عبادة سرية فريدة بين العبادات، ولا يمنع المسلم من الإفطار إلا تعظيمه لله تعالى وأنه مطلع عليه وناظر إليه.

وتلك هي التقوى التي يقصدها الصوم. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

ماذا بعد شهر رمضان؟

بعد انتظام العبد وتأمله في هذا الدرس العظيم طوال شهرٍ كاملٍ يكتسب ملكة المراقبة لله تعالى واستشعار نظره إليه واطلاعه عليه، وأن الملائكة تسجل عليه كل شيء، فيصبح ضميره هو رقيبه في القيام بواجباته تجاه ربه، وتجاه أسرته، وتجاه مجتمعه، فلا يفرط في عمله، ولا يجترأ على المعصية، وإن وقع في ذنب سارع واستغفر وعزم على التوبة النصوح. وهذا هو تعظيم الحرمات.

الصيام وتهذيب الأنا

الإعجاب بالنفس والخيلاء من أدواء العصر، ذلك لأننا نعيش زمان الفردانية وتضخيم الذات.

لقد غفل الإنسان أنَّه صغير في هذا الكون، وأنَّ كل ذرة في جسده تفتقر لرعاية الله تعالى وحفظه.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]

وثناء أهل الجنة هو الحمد للواحد ونسبة الهداية إليه سبحانه وتعالى.

قال تعالى:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]

مسكين هذا الإنسان حينما يظن نفسه في الكون رقماً صعباً، ونسى أنه لم يكن شيئاً مذكوراً.

وكم كان يكره الرسول ﷺ كلمة (أنا).

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: أَتَيْتُ النبيِ ﷺ في دين كان على أبي فدقَقْتُ البابَ، فقال: (مَن ذا)؟ فقُلْتُ: أنا فقال: (أنا أنا) كأنَّه كرِهها.

رواه البخاري رقم ٦٢٥٠

يمكن للمرء أن يُحرز سبقاً في علمٍ أو فنٍ من الفنون، فهل ذلك يسوغ له أن يمشي في الأرض مرحاً أو يخال أنه سيبلغ الجبال طولاً؟!

لا بأس أن يفرح المسلم بما أنجزه من عمل، كأن يكون كتب مقالاً نافعاً، أو

ألف كتاباً ماتعاً، أو علَّم طالباً، أو بنى لله مسجداً، أو نصر مظلوماً، أو قهر ظالماً، أو ساهم في نشر الخير في أي بقعة من الأرض.

هذا الفرح بفضل الله تعالى والرضا عن النفس أن هداها لطريق السعادة، إنما هو فرحٌ بفضل الله. والصائم يفرح حين فطره، بل إن هذا الفرح هو من علامات الإيمان، إنه انشراح الصدر بالطاعة والقربات.

إنما الفرح المذموم والمهلك هو فرح البطر والخيلاء المصحوب بالمن والأذى ونسبة النجاح والإنجاز للذات والقوة والقدرة والذكاء والمواهب. حينها يهلك المرء.

عن إياس بن سلمة بن الأكوع، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم» رواه الترمذي

ما أهون المرء عند الله عندما يذكر نفسه وينسى فضل ربه.

وما أعظمه حينما يرى أن الصانع في الكون كله هو الله تعالى.

والصيام يعلمنا ويشعرنا بحجمنا وصغرنا، فالفقراء والضعفاء والأغنياء والأصحاء سواء في الشعور بالجوع والعطش والافتقار إلى حاجات الجسد.

والملوك والسوقة يمتنعون عن المباحات طواعية، فعلام الاختيال والعجب؟!

بل إن كثيراً من العجائز والمرضى يأبون الإفطار ويصرون على الصوم تعبداً وامتثالاً.

فالصوم يكسر النفس ويستل منها الشعور بالاستعلاء على الآخرين.

إنَّ لحظة انكسار وتذللٍ لله رب العالمين تستخرج منك داءً هو فيك ولا تشعر.

حين ترفع يديك عند فطرك وتدعو متأملاً في القبول وجميل المثوبة والمغفرة.

ومن أسرار الصيام كما يقول الإمام أبو حامد الغزالي: «أن يكون قلبه بعد الإفطار معلقا مضطرباً بين الخوف والرجاء، إذ ليس يدري أيقبل صومه فهو من المقربين؟ أو يرد عليه فهو من الممقوتين؟»(٥)

والخوف دون إفراط يُسلم لك عملك، والرضا دون اعتداد يمنعك من اليأس.

يقول ابن عطاء الله السكندري:

« أصل كل معصيةٍ وغفلةٍ وشهوةٍ الرضا عن النفس، وأصل كل طاعةٍ ويقظةٍ وعفةٍ عدم الرضا منك عنها، ولأنْ تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه، خير لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه..»

وحين تأتي ليال العشر وتشمر عن الجد وتترقب ليلة الغفران وتذرف دموع الندم على ذنبك وتقصيرك.

والتذلل لله تعالى هو عين العز والحرية، وكلما زدتَ إليه افتقاراً زادك الله غنى.

ويعجبني أن نعود سريعاً لإحدى الحكم العطائية:

«تحقَّق بأوصافك يمُدك بأوصافه، تحقَّق بذُلك يمُدك بِعِزه، تحقَّق بعجزك يمُدك بقدرتك، تحقَّق بضعفك يمُدك بحوله وقوته»

(٥) إحياء علوم الدين ج / ١ ٣٠٨

فإذا انسلختَ من شهر رمضان وقد أقبلتَ فيه صادقاً على مولاك عدتَ لفطرتك الطيبة النقية التي تعرف نفسها بالافتقار في كل لحظة للخالق جل في علاه.

وأختم هنا بأبيات لأبي العتاهية:

خانك الطرف الطموح ❊ أيها القلب الجموحُ
لدواعي الخير والشر ❊ دُنــوٌ ونــــزوحُ
هل لمطلوبٍ بـذنبٍ ❊ توبةٌ مــنه نصــوحُ
كيف إصلاح قلوبٍ ❊ إنـما هــنَّ قــروحُ
أحســـن الله بنـــا ❊ أنَّ الخطايا لا تفوحُ
فإذا المستــور منـــا ❊ بين ثوبيــه فضــوحُ
كــم رأينا من عــزيزٍ ❊ طُويت عنه الكشوحُ
صاح منه برحيــلٍ ❊ صائح الدهر الصدوحُ
سيصــير المـرء يوماً ❊ جسـداً ما فيـه روحُ
بين عينــي كـــل حي ❊ علــم المـوت ينوحُ
نـح على نفسـك يا ❊ مسكين إن كنت تنـوحُ
لســت بالبـاقي لو ❊ عمــرتَ ما عمر نوحُ

الصيام والمواساة

إنَّ عالمنا المعاصر عاكف على نفسه مشغول بهمومه متشوف في غده لمتعٍ جديدةٍ. قد استغنى كثيرٌ من الناس بأنفسهم عن غيرهم وتوارى الاهتمام بضعفاء الناس خلف حُجُب كثيفة.

إلى متى يبقى العالم في هذا الشرود والصدود؟ ومن للضعفة ومن ألَّمت به الأوجاع وخيَّمت على قلبه الأحزان؟

ويأبي الله تعالى الرحمن الرحيم إلا أن يجعل للعبادات في الإسلام أبعاداً خيريةً إنسانيةً، وبقدر احتراق العبد في محاريب العبادات بقدر ما يقطر قلبه رقَّة للفقراء والمساكين، ويده نداوةً للمحتاجين وأخلاقه ليناً وسِعة لكل عباد الله. لهذا رغب الإسلام في الصدقة بوجه عام وفي شهر رمضان بوجه خاص، وفرض كذلك صدقة الفطر.

ويأتي شهر رمضان ليذكرنا بأن هناك من لا يجد قوتاً ولا يملك من متاع الحياة شيئاً، **روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيُدارسه القرآن، فَلَرسول الله ﷺ أجودُ بالخير من الريح المُرسَلة»**.

وتتدفق أيدي المؤمنين بالخير حتى بعض عُصاة المسلمين يبادرون في تفطير

الصائمين حول العالم، وترى كثيراً من المسلمين حول العالم يسارعون في الإطعام وإخراج الصدقات في وجوه الخير.

شهر رمضان شهر المواساة والإحساس بمن سيقضي شهر رمضان وحيداً لا أنيس له، غريباً لا صديق له، شريداً لا مأوى له، حزيناً يحتاج إلى من يخفف ألمه ويذهب وحشته ويواسيه في محنته.

شهر رمضان ثورة على أَسْر العادة

ليس سهلاً على المرء أن يُمسي على حالة ثم يستيقظ على ضدها، ذلك لأنَّ النَّفس تألف ما تجد، ويشق عليها أن تُبَدِّل أحوالها، فالعادة تُكتسب بالتكرار ولها على الأنفس سلطان. كانت العقبة الأكبر في طريق دعوة المرسلين عليهم السلام، هيمنة العادات على أخلاق وأفكار أقوامهم، وترفَّقَ الإسلام بالناس في التغيير، فتدرج بهم في تشريع الواجبات والمحرمات، ففُرضت الصلاة في البدء ركعتين ركعتين، ولم تُفرض الزكاة بشكل مفصل، إنما جاءت النصوص تحض على الصدقة بوجه عام. وتأخر تشريع الصيام للسنة الثانية من الهجرة، وكذلك واجبات أخرى.

والتدرج في تحريم الخمر والربا مشهور.

ما أريدُ قولَه هنا أن الصوم هو ثورة على مألوف العادات وعلى القيود التي يَسجن بعض الناس أنفسهم داخلها، وتأهيل الإنسان ليواجه ذاته فيغدو حراً

ولا تتحكم فيه عادة لا يستطيع الفكاك منها.

لقد خلقنا الله أحراراً، وأوجد فينا القدرة والإرادة، وأعطانا الفرص الواسعة لنختار طريقة حياتنا بعد أن بيَّنَ لنا سبيلنا، وأرشدنا ودلنا على طريق الهداية، ورغَّبنا في سلوكه والثبات عليه، ووضع على طريق الحق علامات، بها السالكون يهتدون، وحذرنا من ركوب طرق الغواية والضلال وبين لنا عواقبها والمآل، ووضع على شِعابه علامات،

﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢]

والقصد منه أن يستطيع المرء أن يدير نفسه دون أن تُهدَر قدراته رغما عنه.

إننا نلحظ ذلك في الصوم، فحينما يَحرم المسلم نفسه مما يشتهي من الطعام والشراب والشهوة تقرباً إلى الله تعالى يغدو أمير نفسه، قادراً على ضبطها والتحكم فيها وقيادتها، عصياً على الاستسلام لشهوة أو عادة تأسره وتضعف إرادته وتطفىء همته.

لا تعطها كل ما تريد

يعلمنا الصيام ترك بعض المباحات تقويةً للإرادة وتعزيزاً لهيمنة الروح على الجسد وترقية لمطالب النفس.

عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (الصيام والقرآن يشفعان

للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي رب، منعته الطعام والشهوات بالنهار، فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل، فشفعني فيه، فيشفعان) رواه أحمد.

فإذا كنتَ قادراً على الامتناع على مألوف طعامك وشرابك اختياراً، بل إنك تفرح بذلك، فمن باب أولى أن تقوى على ترك مطالبها والحد من الغرق في المباحات.

حينما رأى عمر بن الخطاب رضيَ الله عنه ولده قد اشترى لحماً فسأله ما هذا؟ قال: لحماً اشتهيتُه، فسأل مستنكراً: أَوَكل شيء اشتهيتَه اشتريتَه؟! في إشارة حاسمة لضرورة ضبط الاستهلاك.

وعن يحيى بن سعيد: أن عمر بن الخطاب أدرك جابر بن عبد الله ومعه حامل لحم فقال: ما هذا فقال: يا أمير المؤمنين فهنا إلى اللحم فاشتريت بدرهم لحما فقال عمر: أما يريد أحدكم أن يطوي بطنه لجاره وابن عمه فأين يذهب عنكم هذه الآية:

﴿..أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا..﴾ [الأحقاف:٢٠]

إن أخطر ما يتعرض له الإنسان في أي عصر ومكان أن يكون أسيراً للأشياء من حوله، فينتقل مِقوَد التحكم من يده، وبعد أن كان سيد نفسه يصبح ترساً في ماكينة تحركه كما تشاء، لا كما يشاء.

أليس من العجيب أن يدافع المرء عن حريته واختياره ثم إذا هو يرسف في أغلال المادة باختياره أيضا؟!

إنه جنون الاستهلاك بعد أن أصبح الشراء من أجل الشراء والتملك من أجل التملك.

وتساهم آلات الدعاية ومعها بعض علوم النفس لتزيين الجديد من السلع والمنتجات مع تلازمية شرطية بين السلعة والقوة والمتعة والرفاهية والحرية والجودة والجمال،....إلخ.

قال لي بعض الأصدقاء: لقد تحولت إلى مستهلك فقط، ولم أعد أصبر على شيء أراه يعجبني إلا اشتريته.

يقول د. عبد الكريم بكار: «ونتيجة للإفلاس الروحي الذي لم يسبق له مثيل أيضا، قام الناس بإحلال الشهوات وأصناف المتع محل السعادة القلبية والإشراق الروحي، فحينما شعر الإنسان باليتم العقدي والانتمائي، تحول إلى مستهلك، وصار رفع مستوى المعيشة هدف الحياة الأكبر، كما صار التقدم الاقتصادي كبير أصنام العصر».(٦)

حينما تحوز عدداً كبيراً من السلع والمنتجات للاستهلاك الشخصي فإن ذلك يعطيك شعوراً بالتفوق على الآخرين والتفرد عنهم، مما يفتح لك المجال واسعاً للشهرة، والقدرة على الاستعراض.

إنه فخ الوفرة وفتنة الثروة وداء الترف، وهو بَعدُ مظهرٌ من مظاهر الفراغ

(٦) العيش في الزمان الصعب صـ ٥٩

النفسي والجفاف الروحي والخفة العقلية، والشعور بالنقص، فيحاول صاحبه أن يستره بتلك المظاهر الخادعة، كأنه يركض ركض الوحوش في الفلاة باحثاً عن السراب، وهيهات أن يلقى غايته.

تتملكني الدهشة مع شعور بالمقت لفنان أو رجل أعمال أو ثري سفيه يختال بأسطول سيارات فارهة، وآخر يركب سيارة مذهبة، وغيره يشتري لوحة فنية بعشرات الملايين وهو لا يميز بين الألوان، ولا يَنظم جملة صحيحة باللغة العربية...ولا بغيرها.

أليس هذا هو السفه بعينه؟

هذا ما يصنعه الفراغ

اتصل بي رجل كريم ذات يوم وطلب مني أن أبحث عن أحد الشباب ليقف في صف طويل لساعات نظير مبلغ ١٠٠ يورو، فقلت: وما طبيعة تلك المهمة؟ قال: هناك نسخة جديدة من هاتف سينزل الأسواق قريبًا، لكن سيباع منه بعد يومين عدد محدود.

والعجيب في الأمر أنَّ هناك شباباً ينامون ليلاً أمام منافذ البيع ليظفروا بتلك النسخة. وهذا الرجل يريد شراء هذه النسخة هدية لابنته.

فوقفتُ لحظة وقلت: لماذا يقف مئات من الشباب ساعاتٍ وساعاتٍ في البرد أو الحر للحصول على هذا الهاتف؟

إنهم لا يقفون للحصول على وظيفة يشقون بها طريق حياتهم! ولا يعانون طول الوقوف أمام إحدى السفارات لبعض الدول لتحقيق حلم السفر من أوطان تعمها البطالة ويسودها الجهل والفقر والحرمان!

ولا يقفون في طوابير طويلة للحصول على رغيف خبز يسدون به جوعة أولادهم!

لماذا إذاً؟... لماذا؟

ما هذا الجنوح الذي أصاب نفراً من الخلق؟!

لقد قص علينا القرآن الكريم قصص عاد وثمود وفرعون ذي الأوتاد، هؤلاء الأقوام طاولوا الجبال في العمارة والبناء غير أنهم كانوا أقزاماً في الروح والصلة بالله رب العالمين، فما أغنت عنهم علومهم وتطورهم من الله شيئا.

تذكُّر الآخرة ورفاهية الروح

جاء الوحي لتهذيب شراسة الطباع والرشد في تلبية حاجاتها دون إرهاق لجانب على حساب الآخر، فإنك أتعبتَ البدن وحرمتَه حقه بغية إشراق الروح خسرتَ الجسد وأهلكتَ الروح، وإن غفلتَ عن الروح وغذائها ودوائها وآثرتَ الجسد خسرتَ الاثنين معاً.

لذلك جاءت الشريعة الإسلامية بميزان دقيق يوازن بين الروح والجسد، والعقل والقلب، والدنيا والآخرة، ونطقت نصوص الكتاب والسنة بذلك.

إن التعلق بالآخرة والنظر لما أعده الله للمتقين ليخفف من غلواء المادة وشراهة الطباع والتطلع إلى زهرة الحياة الدنيا، وكلما عظم مطلوب المرء في قلبه رأى غيره على حقيقته بحجمه الطبيعي.

وشهر رمضان المبارك يعلق قلوبنا بالآخرة وما أعده الله تعالى للصائمين القائمين المحتسبين وتلك جملة من الأحاديث تربط المسلم بثواب الآخرة، وتَعدُه بمغفرةٍ من الله ورضوانٍ وجناتٍ يتقلب فيها وأبوابٍ موسومةٍ باسم الصائمين وغرفٍ من فوقها غرف في الجنة.

وتأمل معي الأحاديث التالية:

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من صام رمضان إيماناً واحتساباً، غُفر له ما تقدم من ذنبه) رواه الشيخان

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (من قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه) متفق عليه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً، غُفر له ما تقدم من ذنبه) متفق عليه.

من صام رمضان، ومن قامه، ومن قام ليلة القدر...تأمل عطاء الله لعباده ورحمته بهم.

أبواب المغفرة لمن صام فمن عجز عن الصيام فليدرك القيام، فمن قصر في القيام فليدرك ليلة القدر في ليال العشر.

وعن سهل بن سعد رضيَ الله عنه أن النبي ﷺ قال: (في الجنّة ثمانية أبواب، فيها باب يُسمى الريّان، لا يدخله إلا الصائمون) رواه البخاري، وزاد النسائي: (فإذا دخل آخرهم أُغلق، من دخل فيه شرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً.

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن في الجنة غرفاً تُرى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها)، فقام أعرابي فقال: لمن هي يا رسول الله؟ قال: (لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى لله بالليل والناس نيام) رواه الترمذي.

إنَّ التعلق بالآخرة باب كل خير ومفتاح كل سعادة وطوق للنجاة من الهموم والكربات التي يواجهها الإنسان في حياته.

لأن قيمة الدنيا في الآخرة زهيدة الثمن متأخرة الرتبة منخفضة المكانة.

قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]

وتلك هي قيمة الدنيا في جنب الآخرة كما قال ﷺ:

« واللهِ ما الدنيا في الآخرةِ إلا مثلَ ما يجعلُ أحدُكم إصبعَه في اليمِّ، فلينظر بم

يرجعُ» رواه مسلم

الربح والخسارة بين التصور المادي والتصور القرآني

إن حرص التاجر على الأرباح حاكمة على تحركاته ومحركة لصفقاته ومفاوضاته، ومن قدر أن يربح ثلاثة أضعاف فلماذا يقنع بما هو أقل من ذلك؟

ولأن الله خالقنا وصانعنا فهو أعلم بخلجات النفوس وخفايا الأسرار وطبيعة النفس العجيبة، فيعرض علينا ألواناً من التجارات الرابحة أضعافاً مضاعفة، فينادي:

﴿ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٥]

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) ﴾ [الصف: ١٠-١٢]

حينما يؤمن الإنسان بالمادة فقط تنقلب عنده الموازين، فإن خسر مالاً فلا عوض له، وإن تلف بدنه فقد ضاعت الفرصة الوحيدة للاستمتاع بالحياة، وقد يضحى بما يؤمن به من أجل لعاعة من الدنيا سيخسرها إن هو أصر على مبدأ ثابت.

أما من يؤمن بالآخرة فتهون عنده التضحيات.

قد يخسر المسلم ماله من أجل ما يؤمن به، وقد لا يساوم على كرامته وحريته بمنصب زائل أو مال فان، وقد يضطر لترك وطنه ومفارقة أحبابه لعيش لمبادئه ورسالته. ثم إنَّ رحلتنا في هذه الفانية قصيرة.

وأورد الإمام أبو حامد في الإحياء تلك الأقوال:

ومن يحمد الدنيا لعيش يسره فسوف لعمري عن قليل يلومها

إذا أدبرتْ كانت على المرء حسرةً وإن أقبلتْ كانت كثيراً همومها

قال أبو سليمان الداراني: من طلب الدنيا على المحبة لها لم يعط منها شيئا إلا أراد أكثر. ومن طلب الآخرة على المحبة لها لم يعط منها شيئا إلا أكثر.

قلت: إنَّ حب الدنيا يجعل يدك سفلى، فتأخذ ولا تقنع، وتأكل منها ولا تشبع، وأما حب الآخرة فترفعك وتدفعك للعطاء، فتكون يدك هي العليا.

وقال الفضيل: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى لكان لنا أن نختار خزفاً يبقى على ذهبٍ يفنى.

قيل لبعض العباد: قد نلت الغنى، فقال: إنما نال الغنى من عتق من رِق الدنيا.

وقال أبو سليمان: لا يصبر عن شهوات الدنيا إلا من كان في قلبه ما يشغله بالآخرة.

الصيام وضبط الموازين

ما أشد حاجة المسلمين في عصرنا إلى الموازين القرآنية والنبوية التي تعصمهم من الاضطراب في الرؤى والخلل في التفكير والسيولة التي تعيشها القيم، فإننا نعيش في زمان اختلطت فيه المفاهيم وتناقضت فيه الأحكام والآراء وأصبح كل شيء خاضع للتغيير، فلا قدسية لشيء ولا ثبات لشيء ولا دوام لقيمة، ومعظم ما حولنا يجوز عليه التناقض، فيمكن أن يكون صحيحاً كما يمكن أن خاطئاً، فيوماً يراه الناس حسناً ويوماً يرونه قبيحاً، وذلك هو طريق صناعة العدمية والعبثية الأخلاقية الذي يقضي إلى نَسبنة كل شيء لحد إنكار الحقائق الكبرى للوجود التي نزلت بها الكتب وأُرسل الرسل لبيانها ودعوة الناس على الإيمان إليها وتطبيقها في حياتهم.

لم تتعرض القيم في عص لقصف شهواني مثل ما تواجهه في زماننا، الأمر الذي جعلها في حالة هشاشة وضعف مخيف.

فكل ما يقف في طريق إشباع رغبات الإنسان يجب أن يُزاح من طريقه ليسد جوعته ويروي غلته، من حلالٍ أو حرام.

إن قضية الدين والحلال والحرام أصبحت مزعجة لكثير من البشر في عالمنا، كأنها شبح يريدون الهروب منه حتى لا يقطع عليهم لذة الساعة، ولسان حالهم: (وليكن بعد ذلك ما يكون).

وهذا من شأنه أن نعمل على ترسيخ القيم في نفوسنا وإبراز العلاقة بين العبادات في الإسلام والقيم الأخلاقية والتربوية والإنسانية، وتربية أولادنا عليها، والتعريف بها في واقعنا الأوروبي في صورة بيانية نظرية، وتجسيدها في صورة عملية تطبيقية.

القيم في ضوء الصيام

عجيبةٌ فريضة الصيام، تتغير في ظلها كثير من المفاهيم فتنضبط الموازين وتعتدل المعايير، وتتغير نظرتنا للأشياء، فما تنفر منه النفس في وقت، تحبه وتنسجم معه في وقت آخر.

ولنتأمل هذا الحديث الشريف الذي يتضمن كثيراً من الفوائد، ولا يتسع المقام للوقوف عليها، لكننا نستخرج منه، ومن بعض الأحاديث الأخرى ما يفيدنا في ضبط الموازين:

يقول الرسول ﷺ فيما يرويه عن ربه: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (قال الله عز وجل: كل عمل ابن آدم له إلا الصيام؛ فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جُنّة، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث، ولا يصخب، فإن سابّه أحد أو قاتله فليقل: إني امرؤ صائم، والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر

فرح، وإذا لقي ربه فرح بصومه) رواه البخاري ومسلم.

في الحديث كثير من القيم المعيارية، منها:

- التدريب على تخليص حظوظ النفس (كل عمل ابن آدم له إلا الصوم).
- احتساب الطاعة مع الاستسلام لأمر الله جزاؤه ثواب غير محدود.
- الصوم وقاية من الشرور ومساوئ الأخلاق.
- ما عند الله خير...هذا هو المعيار الذي يجب أن نستحضره ونقدمه في قلوبنا وعقولنا، ما عند الله أعظم من الدنيا وما فيها، (لخلوف فم الصائم أطيب عند الله...).

وهكذا يمضي المسلم في حياته لا يقدم شيئاً على مراد الله تعالى وجميل مثوبته.

قد يتألم من المرض لكنَّ أجر الآخرة يخفف عنه. قد يتأوه من الغربة لكن أجر المهاجر في سبيل الله يهون عليه. قد يعاني من أذى نفسي لكنه يحتسب عند الله تعالى، فيقوى فؤاده وتشتد عزيمته.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا يُكْلَم أحد في سبيل الله، والله أعلم بمن يكلم في سبيله إلا جاء يوم القيامة، واللون لون الدم، والريح ريح المسك. رواه البخاري.

فرائحة فم الصائم أزكى وأعطر من رائحة المسك، ويأتي الشهيد يوم القيامة وجرحه ودمه ريحه ريح المسك.

حينما يستشعر المسلم دوما أن الله هو الغاية وأنَّ إليه الرجعى، وأنَّ الحسن ما رآه الشرع حسناً، وأنَّ القبيح ما قبحه الشرع فسيبقى ثابتاً على عقيدته مرابطاً على مبادئه. لن يكون إمَّعةً يميل مع الريح أينما مالت به.

والشباب المسلم في الغرب يواجه تحديات كثيرة، حينما تقرر الفتاة المسلمة ارتداء الحجاب ستواجه - غالبا - صعوبات متنوعة، وحينما تستحضر ما عند الله والفوز برضاه ستكون أقدر الصبر والثبات. وهكذا كل اختيار وقناعة تتصل بالهوية الإسلامية.

الجمال بين الباطن والصورة

العالم مفتون بالقوة والجمال غير ملتفت إلى ما وراء الهيئة والمظهر، وتلك طامة تعمي عن رؤية الحقائق.

وهؤلاء فريق من الناس هذا وصفهم:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون:٤]

بينما العناية بالباطن هو الذي يجب أن نتوجه له ونحتفل به.

عن أبي هريرة عبدالرحمن بن صخر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم)) رواه مسلم

روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إنَّه لَيَأْتي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَومَ القِيامَةِ، لا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَناحَ بَعُوضَةٍ، اقْرَؤُوا فَلا نُقِيمُ لهمْ يَومَ القِيامَةِ وزْناً.

إنَّ المبالغة في تجميل الظاهر لهو دليل على نقص داخلي، ولسنا في حاجة إلى التأكيد على عناية الإسلام بالجمال والتأنق في الجسد والملبس والمسكن والمركب، والنصوص في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ مستفيضة في هذا الباب، ويلفت القرآن أنظارنا إلى هذه الحقيقة حينما يتحدث عن الدنيا:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤]

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف: ٤٦]

لكن تأملوا الآيات جيداً سنجد أن الله تعالى يوقظ عباده من غفلة الافتتان بالزينة الفانية عن المتاع الباقي والنعيم المقيم.

من الواضح أن الاعوجاج والانتكاسات الأخلاقية التي يصاب بها بعض الناس تتكرر عبر العصور، وكأننا نرى مشاهد الاستعلاء والكبر التي وردت في قصة قارون تتكرر مرات ومرات، فها هو قارون يخرج على قومه في خيلاء

وبطر مقيت، وقد أجلب عليهم بخيله ورجله حتى فتن طائفة منهم ممن غرتهم الحياة الدنيا فقالوا ليت لنا ما لقارون من نعيم.

غير أن أهل البصيرة الذين يميزون بين الذهب والخزف صاحوا محذرين من الهزيمة النفسية.

وانظر إلى تصوير القرآن الكريم لهذا المشهد:

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)﴾ [القصص: ٧٩ - ٨٣]

هذه الهزة النفسية الشديدة التي لحقت بمن يريد الحياة الدنيا جرَّاء إرهاب زينة قارون يصاب بها بعض شبابنا الوافدين على الغرب أول قدومهم، فإمَّا أن ينبهروا ويحسبون أن التطور المادي قرين مجافاة الدين مقارنة مع الأحوال الاقتصادية والعلمية في العالم الإسلام، فتكون عاقبة أمرهم خسراً. أو يتداركهم الله برحمته ويقيض لهم الذين أوتوا العلم.

وعلى الدعاة والمؤسسات الإسلامية في الغرب أن يستوعبوا الوافدين الجدد والأجيال الجديدة، ويحفظوا عليهم دينهم وهويتهم.

إنَّ كثيراً من الناس يغرهم ظاهر الحياة الدنيا، يحسبون الرزق في مالٍ وفيرٍ، أو بيتٍ وسيعٍ أو زوجةٍ حسناءَ، أو منصبٍ رفيعٍ، أو جاهٍ عريضٍ، ويغفلون عن عطاء الروح والقلب، لا يُقدرون معنى الرضا بما قسم الله ورزق ووهب.

لطالما سمعنا من كبار الأغنياء أنهم يودون أن يناموا مليء جفونهم كما ينام رجل بسيط، أو يأكلوا طعاماً هو طعام الفقراء غير أنهم حُرموا منه. ذلك العطاء الخفي المتعدد أخبرنا عن جانب منه رسول الله ﷺ: **قال: «..وما أعطى أحد عطاء أوسع من الصبر» صحيح النسائي**

قد يظن القارئ أننا نفضل الفقر على الغنى والمرض على الصحة، كلا، ولكن حينما يحترق المسلم في أتون الدنيا ويتلظى بلهيبها، فحينئذ يجب أن نطفئ نارها بجرعة من اليقظة والبصر بحقيقتها.

وها هم قوم قارون يستشعرون لطف الله تعالى وحكمته في المنع والعطاء، ويعلمون أن وفرة المال ليست علامة الرضا والقبول، وأن رقة الحال ليست دلالة الغضب والعقاب.

ولكن الإنسان يغفل عن حقائق الوحي: **﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر: ١٥ - ١٦]**

إنَّ التكريم الوافر والمنزل السامي والحظوة الكاملة والمكان الرفيع، سيكون بالآخرة، فرب صعلوك في الدنيا ملك يوم القيامة، ورب ملك جبار عنيد في الدنيا لا يزن في الآخرة جناح بعوضة.

هذا الحقيقة القرآنية من شأنها أن ترسخ في نفس المؤمن العزة والكرامة، وألا يستطيل بنعم الله تعالى على خلقه، وأن يرعاها حق رعايتها.

من أين يكتسب المرء تقدير الذات؟

ما وجه التلازم بين الثقة بالنفس وتقدير الذات وارتباطه باللباس الأنيق، أو الفراش الوثير، أو المنصب الرفيع؟

هل يستمد الإنسان قَدْره وقيمته ومكانته من الأشياء التي صنعها من حوله؟

لو قلنا نعم سيعني ذلك الكثير والكثير، حيث تُقبل الناس على من أقبلت عليهم الدنيا وتزيوا بزيها، ويدبرون عمن أدارت لهم ظهرها وسلبتهم محاسنهم.

ولطالما سمعنا أثرياء آثروا أن يغلقوا صفحة حياتهم مبكراً، لأزمةٍ عارضةٍ، أو محنةٍ موجعةٍ لم يحتملوا لها صبراً، أو غاياتٍ وصلوا إليها ولم يعد وراء ذلك ما يروي ظمأ الروح.

إذاً، فإن تقدير الذات وكسب توقير الجماهير لا يصلح معه الاتكاء على فاخر الثياب أو القصور.. كما تروج كثير من وسائل الدعاية للتلازمية الشرطية بين الوفرة والرفاهية والمنزل الرفيع بين الناس.

إن اعتزاز المرء بنفسه ورضاه عن ذاته لا يكون إلا بشيء وقر في صدره؟ واستوطن عقله، وملك لُبَّه، حتى يستعلي بدينه وقيمه وأخلاقه على الدنيا وزينتها.

قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [فاطر: ١٠]

لقد صنع الرسول ﷺ جيلاً، لهثتْ خلفه الدنيا، فلم تبلغ معه شيئاً، ولم تنل منه حظاً، كانت أقدامهم على الأرض وقلوبهم تلامس السماء، بل تطوف مع الملأ الأعلى.

هل تذكرون الصحابي سيدنا ربعي بن عامر رضي الله عنه؟

هل رأيتموه وهو يختال - في موضع يحب الله فيه عبده أن يراه متعالياً، يوم دخل على قائد الفرس؟

إنه نموذج من الرجال لم يعهدهم الفرس والروم من قبل، وقد استخف به رستم حينما رآه، فمن يكون هذا الرجل وهو بادي البداوة لم يعهد القصور والدور ومنازل القادة الكبار؟

غير أن ما جهله وعمى عنه قائد الفرس وكل قادة العالم حينذاك أنه يستمد عزته وجاهه من العزيز الحكيم. الذي نركع له ونسجد، ونخضع له ونخشع،

ونطيع ونسمع.

لذلك لما سأله: ما الذي جاء بكم؟

قال مقولته الشهيرة والتي كان الفضل في شهرتها للإمام أبي الحسن الندوي رحمه الله، يقول:

إنا قوم ابعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

تلك المعاني هي ما ينبغي أن نربي عليها أولادنا، دون استعلاء على أحد من الناس.

ولله در الإمام الشافعي حيث يقول:

أمطري لؤلؤاً جبال سرنديب
وفيضي آبار تكرور تبراً
أنا إن عشت لست أعدم قوتاً
وإذا مت لست أعدم قبراً
همتي همة الملوك ونفسي
نفس حر ترى المذلة كفراً
وإذا ما قنعت بالقوت عمري
فلماذا أزور زيداً وعمراً

وما أجمل قصيدة الإمام القرضاوي رحمه الله (أنا المسلم)

أقتطف منها بعض الأبيات:

أنا إنْ سألت القوم عني من أنا؟

أنا مؤمنٌ سأعيش دوماً مؤمناً..

لن أنحني..لن أنثني.....لن أركنا..

أنا مسلمٌ..هل تعرفون المسلمَ؟

أنا نور هذا الكون إن هو أظلما..

أنا في الخليقة ريٌّ من يشكو الظما..

أنا مصحفٌ يمشي وإسلام يُرى..

أنا نفحةٌ عُلويةٌ فوق الثرى..

الكون لي ولخدمتي قد سُخرا

ولمنْ أنا..أنا للذي خلق الورى..

ولغيره لن أنحني لن أنثني لن أركنا..

أنا من جنود الله..حزب محمد..

وبغير هدى محمد لا أهتدي

أنا كوكب يهدي القوافل في السرى

مالي سوى نفس تعز على الثرا

قد بعتها لله...والله اشترى

تلك الروح يجب أن تسري في كياننا، وترسخ في عقولنا فنرفع ما حقه أن يُرفع بأمر الله، ونخفض - بأمر الله - ما حقه أن يوضع.

القوة في ميزان القيم

في يوم السقيفة سارع عمر بن الخطاب رضي الله بأخذ البيعة لأبي بكر الصديق رضى الله عنه وكان أول من أعطاه صفقة يمينه، وكان أبو يرى أن عمر أقدر على تكاليف الخلافة منه، فقال له: أنت أقوى مني، فرد عمر قائلا: قوتي لك مع فضلك .

هنا يقدم لنا الفاروق مفهوما جديدا للقوة، أنها وسيلة لخدمة الحق وسبب في يد الحاكم العادل يصرفها في شؤون رعيته، وعمر رضي الله عنه الذي جمع الله له مظاهر القوة من أطرافها لم نره يوماً إلا حانىَ اليد رقيقَ الحس متدفقَ المشاعر على رعيته يوم أن ولىَ أمرهم.

وهو القائل في خطبة تقليد الخلافة:

القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له.

إن الإسلام يصون القوة من أن يستبد بها من يراها فرصة يقتنص بها اللذات

أو يغتال بها الحقوق، أو يستطيل بها على خلق الله.

حينما يذكرنا دوما بأننا عباد له فقراء بين يديه عاجزين عن تصريف أمورنا بغير حوله وقوته.

فيقول تعالى:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]

ويربطنا بمصدر القوة الأعلى وأنه ما دونه لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا حياةً ولا نشوراً.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]

ويوم يتيه بنفسه مختالا يظن أنه يخرق الأرض أو يبلغ الجبال طولاً؛ يخاطبه ربه: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨)﴾ [المنافقون: ٣٦-٣٨]

كلنا تحت قبضة الله تعالى ولا نملك أن نحرك ساكنا إلا بقدرته وإرادته.

- إن معيار القوة الظاهر في مذهب الناس هى المال والجاه والسلطان، غير أنَّ

الوحي المقدس له الكلمة الأخيرة الحاسمة، إنَّ القوة الحقيقية: قوة النفس، التي تُلجم نزوات العاطفة وتكبح جماح الشهوة، وتعود بالإنسان إلى فطرته، إلى أصله، إلى حقيقته.

ولها افتتن الذين يريدون الدنيا فتمنوا ما وُهب لقارون ظناً منهم أن تلك علامة الخير وبشارة السعد تنزلت عليه من السماء، على أنَّ العلم الذي ينير البصيرة ويهدي سواء السبيل يخرج المؤمن من كل فتنة غبراء مظلمة، فمن يرى بنور الله تعالى، يرى الأشياء من حوله على حقيقتها، يزنها بميزان القرآن، وينظر إليها من زاويته. ولا يهتدي إلى الحقائق الربانية إلا أهل العزم والرشد والصبر.

وماذا صنع ربك بمن تطاولوا وصرخوا: ﴿ **مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ**﴾ [فصلت: ١٥]

فكانت تلك عاقبة أمرهم:

﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ**﴾ [فصلت: ١٦].

إنه جنون القوة الذي يُعمي صاحبه عن إدراك مواطن الخطر فيورد نفسه المهالك.

وجحود النعمة الذي يُردي بصاحبه ويَسلبه ما وهب الرحمن ويبدله بجنته صحراء قاحلة.

إن القوة المنشودة تلك التي تتسربل بلباس التقوى، التي تقود صاحبها للتحكم في شهوات نفسه فتُلجمه عن الخطايا والدنايا.

وليس الشديد بالصرعة إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب.

قد يتعرض المرء في سحابة نهاره لمواقف تستثير غضبه فماذا يصنع؟ حينما يتذكر أنه منع نفسه من الشهوات إرضاء لله رب العالمين فعليه أن يكظم شهوة غضبه حفظا لصومه كما قال الرسول ﷺ: «**فليقل إني امرؤ صائم**»

يوم تُجرد القوة من الأخلاق والقيم يتحول الإنسان إلى وحش كاسر يلتهم ما يلقاه في طريقه دون أن ينبض قلبه ندماً أو يعاني أزمة ضمير.

وقد شهد العالم الحديث حروبا طاحنة غُدر فيها بالملايين من الأبرياء، فسفكت دماؤهم واستبيحت أموالهم وأعراضهم تحت أقدام أصحاب المطامح والمطامع.

لقد رسم الإسلام طريقا يجعل من كل قوة نعمة وارفة الظلال يتفيأ ظلالها خلق الله، فيتعلم الجاهل، ويأمن الخائف، ويسكن القَلِق، ويشبع الجائع، وتشيع في الناس المرحمة.

وذلك من خلال ما يلي:

١- الله جل جلاله واهب النعم، قال جلَّ شأنه: ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ** ﴾ **[النحل: ٥٣]**

٢- نحن مستخلفون على ما في أيدينا من مال أو سلطان وسوف يسألنا الله عن مصارفها، وفق إرادته لا تبعا لأهوائنا.

٣- التأكيد على أن القوة وسيلة لعمارة الدنيا وإصلاح الأرض وخدمة الضعفاء وأصحاب الحاجات.

٤- عبادة الشكر والعرفان لله تعالى وتقييد النعم لا يكون بغير بمعرفة كيفية شكر المنعم.

حين سرق مسلم درعاً على عهد رسول الله ﷺ واتهم فيها يهودي نزل القرآن الكريم بآيات تُظهر الحق وتنصف المظلوم وتعلي من قيمة العدالة كقيمة مطلقة لا تخضع للنسبية، فلا تتغير بتغير الزمان والمكان والأشخاص والأحوال.

قال تعالى: ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا** ﴾ [النساء: ١٠٥]

ما أجمل مكارم الأخلاق التي كان يتمتع بها العرب قبل الإسلام، فقد عرف عنهم أن الرجل قد يصارع الجوع في سبيل إشباع ضيفه، وقد ضربوا أروع الأمثلة في هذا الباب فها هو حاتم الطائي حينما نزل به ضيف لم يكن يملك غير فرسه ومع ذلك قام بذبحه له.

وإذا ذكرتَ خلق الوفاء حضر اسم السموأل، وكان الرجل يفضل الموت على أن يسلم من احتمى به لعدوه، وحينما عاد الرسول ﷺ من الطائف دخل في

جوار المطعم بن عدي وقد استنفر أبناءه لحماية رسول الله عليه وسلم.
قد تكون المصلحة هى شفاء الصدر والرغبة في الثأر والانتقام، غير أنَّ الانتصار للمباديء هو القيمة العليا التي يجب أن تصونها ونعتصم بها، لنصون ديننا وقيمنا وأخلاقنا، لذلك يرفض الإسلام معاقبة أحد بجريرة غيره فقال تعالى:
﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٣٨]

ما أفدح العاطفة حينما تجنح بالمرء بعيداً عن الاحتكام للعقل، وما أصعب كبح جماح العاطفة وكظم الغيظ والفصل بين المشاعر واتخاذ المواقف الأخلاقية.
أذكر يوم أحداث سبتمبر يوم سمعنا الخبر وكنا مع مجموعة من الشباب فمنهم من استقبل الخبر على أنه انتقام إلهي يستوجب الشكر لله، غير أن أولى النهى من الدعاة الذين كانوا معنا الذين يحكمون الرأى بالعقل الشرعي رفضوا مسلك الشماتة والتشفي، ورفضوا العدوان على الأبرياء، وإذا كانت الولايات المتحدة متحيزة ضد كثير من قضايا المسلمين المظلومين حول العالم فهذا لا يسوغ لنا أن نوافق على قتل إنسان بريء.
كلما نضج القلب في محراب العبادات تجلى ذلك في أخلاق ربانية، ونصوص الكتاب والسنة ناطقة بالعلاقة الوثيقة بين الصلاة والصيام والزكاة والحج، والأخلاق والآداب والسلوك.
هذا إنْ عشنا بقلوبنا وأوراحنا وعقولنا تلك العبادات العظيمة.

تبرع لدعم إصدارات المجلس

www.euimams.org

شهر رمضان

واحةُ الراحة للقلوب القلقة أن تسكن، وللأرواح العطشى أن ترتوي، وللنفوس المرهقة من الحياة أن تثوب إلى ربها لتجد الأنس واليسر.

ويومَ تحيا قلوبنا من خُمودها، وتستنير بعد خفوتها، وتستيقظ بعد غفلاتها، فإننا سنتذوق حلاوة الصلاة، وعظمة القرآن، وجمال الصيام.

وقد ألقى هذا الكتاب الضوء على طائفة من الأحاديث النبوية والقيم الروحية والأخلاقية والتربوية التي يروم الصيام تحقيقها في حياة المكلفين.

وعسى أن يدركنا قبسٌ من أنواره فنَخرُج بعد شهر رمضان بقلوب أتقى، وأرواح أرقى، وأعمالٍ صالحةٍ في الآخرة أبقى.